

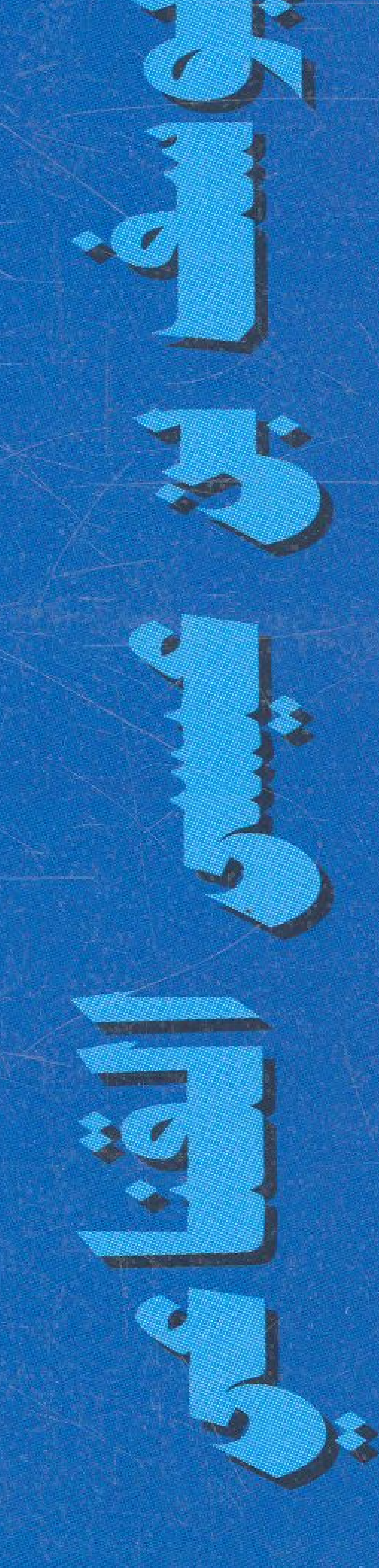


منارات ثقافية كويتية ٦



يوسف بن عيسى القناعي

(فقيهاً ومصلحاً)

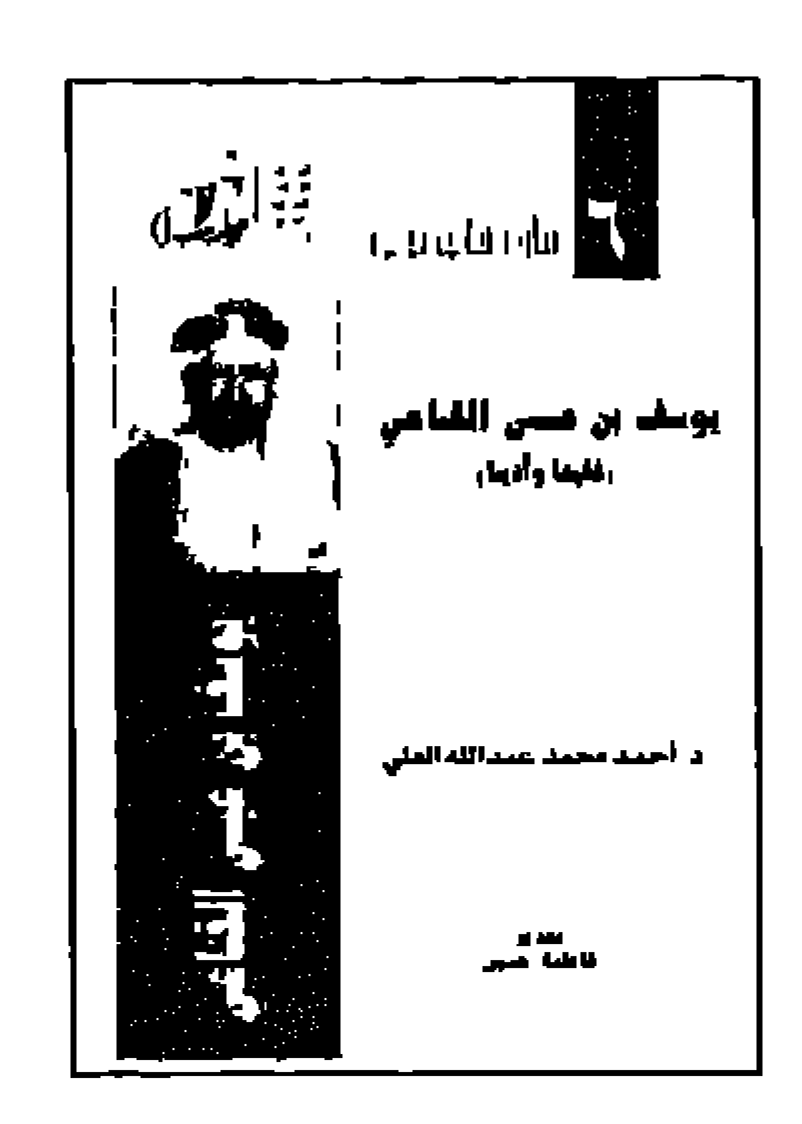


د. أحمد محمد عبدالله العلي

بدر خالد البدر

تحرير:
فاطمة حسين العيسى

إهـــــــداء ٢٠٠٧.٠
الأستاذ الدكتور / خالد عزب
الإسكندرية





يوسف بن عيسى القناعي

(فقيهاً ومصلحاً)

منارات ثقافية كويتية ٦

ضمن أنشطة مهرجان القرين الثقافي الثامن

ندوة ٢١ يناير ٢٠٠٢

د. أحمد محمد عبدالله العلي
بدر خالد البدر
فاطمة حسين العيسى

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
إشراف: إدارة البحوث والدراسات

١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م
دولة الكويت

ردمك ٩-٠٩٢-٠-٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 092 - 9





منارات ثقافية كويتية ٦

الشيخ يوسف بن عيسى القناعي

(فقيهاً ومصلحاً)

ندوة ٢١ يناير ٢٠٠٢

الكتاب

السادس

د. أحمد محمد عبدالله العلي

بدر خالد البدر

فاطمة حسين العيسى

تقديم

عمد المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في مشروعه سلسلة «منارات ثقافية كويتية» الذي أطلقه في العام ١٩٩٩، إلى تقديم الرواد الكويتيين الأوائل، من مفكرين ومؤرخين وأدباء وغيرهم، الذين كان لهم دور كبير في مسيرة النهضة الأدبية والفكرية في المجتمع الكويتي، ليكونوا قدوة ومثالا يحتذى به، ومنارات تستنير بها الأجيال. ومن بين هؤلاء الرواد الشيخ يوسف بن عيسى القناعي، وهو موضوع الاصدار السادس في هذه السلسلة.

تمثلت في الشيخ يوسف فضائل كثيرة، فهو طالب العلم الدؤوب، والأستاذ المخلص الواعي، ورجل الدين والفقه، والمفكر السياسي، والمصلح الاجتماعي، والتاجر الناجح الخيّر، والقارئ الجامع للأدب. إنه علم من أعلام الكويت، طلب العلم منذ نعومة أظفاره، فحفظ القرآن في سن السابعة، ثم توجه لدراسة النحو والفقه. وهو كذلك من بين الرواد الذين تنقلوا في البلاد لتحصيل العلم من أجل العودة إلى وطنه بزاد يمكنه من المشاركة في نهضته، فتوقف خلال رحلاته العلمية في عدة محطات، منها الأحساء، فالبصرة، حيث تلقى العلم على أيدي مشايخها،

ثم مكة المكرمة، حيث قرأ البخاري في الحرم المكي الشريف على يدي الشيخ شعيب المغربي، الذي زوده كذلك بدروس في المنطق. هذا إضافة إلى قراءته شروحا وتفاسير أخرى.

ويعرض هذا الكتاب مسيرة الشيخ يوسف بن عيسى القناعي وبصماته في عالم التعليم والقضاء والاصلاح السياسي والاجتماعي، كما تمثلت في مواقفه الايجابية من الديمقراطية باعتبارها لا تتناقض مع مبدأ الشورى في الاسلام، وكذلك الموقف المتقدم تجاه قضايا المرأة.

متمنين للجميع قراءة ممتعة ونافعة.

أ. بدر سيد عبدالوهاب الرفاعي

الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



استهلال

كلفني المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أن أجمع أوراق الندوة التي خصصت للحديث عن الشيخ يوسف بن عيسى القناعي والتي عقدت في رابطة الأدباء بتاريخ 21 يناير 2002 في كتيب خاص.

يستوقفني اليوم، وأنا أقدم لهذا الكتاب التعبير الذي كثيرا ما يجري على ألسنتنا صادرا عن قناعتنا الراسخة بأن «الإنسان موقف»، والموقف في هذا التعبير هو ما نقف عنده طوعا أو قسرا بالانبهار مما نصادفه في حياتنا من قول أو عمل.

هذه المواقف - في ظني - لا تصدر من فراغ، لأنها تعبير صادق عن القناعة برأي معين يلحق به السلوك فيما بعد. وهذا السلوك يتكفل بتقديم الإنسان بلا رتوش ولا مجاملات بل يأخذ بيدنا إلى ما يسمى «إنسانية الإنسان». فالإنسان - كما نعرف جميعا - هو صورة ومحتوى، والصورة قد تكون بارزة وواضحة للعيان، لكن السلوك هو المعبر الحقيقي عن المحتوى المبرز للصورة الحقيقية بأبعادها المختلفة.

والمنارة التي يتحدث عنها هذا الكتاب هي من ذاك الصنف الإنساني مما جعل الحديث عنه من حديثها عن ذاتها أو تقديمها لنفسها.

فمن هو إذن الشيخ يوسف بن عيسى القناعي؟

هو... شجرة وارفة الظلال.

هو... رجل يستوطن ضمير الأمة ما بين الماضي والحاضر والمستقبل.

هو... رجل شارك في وضع وطنه على عتبة

التحديث بمبادرتين في مجالي التعليم عام 1912، والبلدية عام 1929.

هو... رجل شغل وما زال يشغل مكانة بارزة من ذاكرة الوطن.

هو... رجل يذكره من عرفه عن قرب أو سمع أو قرأ عنه عن بعد، بالتقدير والاحترام والمحبة.

هو... رجل تقدم عنده «العطاء» على «الأخذ» حتى جعله ينظر لكل ما قدمه للكويت على أنه وفاء لدين في عنقه، فكان نموذجا لمعنى المواطنة.

هو... رجل التقت عنده - وربما عنده فقط - عقول جل أهل الكويت وكذلك قلوبهم وضمائرهم وأيضا أذواقهم وأمزجتهم على اختلافها.

إنه لمشروع رائد (منارات ثقافية كويتية) ذلك الذي أطلقه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، في ندوات حولية يسلط فيها الضوء على إنجازات الشخصية الكويتية التي تركت أثرها في المجتمع، والتي كان لها الدور المهم في بناء حركة التعليم والنهضة الأدبية والفكرية في البلاد.

وتحقيقا لهذا الغرض عقدت الندوة الخاصة بالشيخ يوسف بن عيسى القناعي في رابطة الادباء بتاريخ 21 يناير 2002 استهلها الأمين العام السابق للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب د. محمد الرميحي بتقديم شامل. ثم وضع أساسها الدكتور أحمد محمد عبدالله العلي، وشارك فيها الاستاذ بدر خالد البدر وأضفتُ، إليها وحررت «كتيبها».

كل ما أتمناه أن يشعر من يمسك بهذا الكتيب للمطالعة أو الدراسة أو حتى لمجرد التصفح، بأنه يلمس نسيجا متجانسا لا يتعدى كونه «إضافة» متواضعة لما سبق أن قُدِّم عن الشيخ يوسف. وأخص بالذكر الطيب هنا كلا من المؤرخ سيف مرزوق الشملان، وكذلك الدكتورة نجاة عبدالقادر الجاسم.

ومن هذا الموقع المتواضع انظر إلى المشروع بين يدي بعينين: عين القرب والقرابة منه فهو «شقيق والدي»، وعين المواطِنَة التي لعب شيخنا فيها دورا مفصليا حين ارتبط دخولها للدنيا ببدء دوران عجلة تعليم البنات في الكويت عام 1938.

أقول إن شيخنا لم يكن لينجز ما أنجز لولا أنه أفرغ إناء «الألم» من نفسه وملأه بالأمل بديلا.

اليافع يوسف بن عيسى ابن الإثني عشر ربيعا وابن التاجر الميسور الحال، ينتظر عودة سفينة المتاجرة حاملة أخاه الأكبر والبضائع التي ستضيف إلى اليسر يسرا فيأتيه الخبر بغرق السفينة والأخ الحبيب معها، فينكسر الوالد المسكين تجارة وصحة حتى وافاه الأجل بعد سنوات قليلة تاركا للشاب الصغير مواجهة الحياة وحده. ورغم مرارة المأساة وتضخم المسؤولية في استئناف المسار التجاري ورعاية العائلة الممتدة، اضطر شيخنا إلى أن يمد ذراعا في التجارة التي ما أحبها ولا أحبته، وذراعا أخرى في «التعلم والعلم والتعليم».

هكذا صيغت رجولته المبكرة عبر المسؤولية المتعاظمة وتغذت النبتة الطيبة بالغذاء الروحي

والعلمي والإنساني لتصبح الغرس الطيب لتلك الشجرة الوارفة الظلال حيث تعدى عطاؤه عائلته إلى كل الوطن.

لقد هداه العزيز الحكيم إلي سواء السبيل ليكون قدوة للأجيال المتعاقبة للتمييز بين حقنا على الوطن، وحق الوطن علينا للوصول - على أقل تقدير - إلى منطقة «لا ضرر ولا ضرار»!.

فاطمة حسين العيسى

الشيخ يوسف بن عيسى القناعي

- ولد في العام 1878م، وتوفي في العام 1973.
- تلقى العلوم في الكويت والأحساء ومكة المكرمة على أيدي كبار رجال العلوم في تلك البلاد.
- عكف على دراسة الفقه الإسلامي والعلوم الدينية وبرز فيها.
- شارك في تأسيس المدرسة المباركية - أول مدرسة نظامية في الكويت - وتطوع للعمل فيها ناظرا ومدرسا.
- ساهم في تأسيس المدرسة الأحمدية وتطوع للعمل فيها ناظرا ومدرسا.
- عمل في القضاء مجانا عدة مرات ولفترات مؤقتة، ريثما يتم تعيين قاضٍ جديد، وكان يعتذر عن قبول أي منصب قضائي بصفة دائمة لتعارض ذلك مع عمله التجاري.
- يعتبر الشيخ يوسف قاضي التمييز في الكويت في المسائل المدنية والأحوال الشخصية، وكان يقوم بعمله هذا في ديوانيته ومن دون مقابل.
- انتُخب نائبا لرئيس أول مجلس شورى سنة 1921 في الكويت، ثم نائبا لرئيس مجلس الشورى سنة 1938، وعين عضوا في مجلس إدارة البلدية... وعضوا في مجلس إدارة المعارف.

من مؤلفاته:

- المذكرة الفقهية في الفقه الإسلامي.
- صفحات من تاريخ الكويت.
- الملتقطات (صدر منها ستة أجزاء).

أولاً: المحاضرة

الشيخ يوسف بن عيسى القناعي
فقيهاً وأديباً

للدكتور أحمد محمد عبدالله العلي

الشيخ يوسف بن عيسى:
I- حياته وأعماله

■ مولده ونشأته:

على ضفاف الخليج في مدينة الكويت ولد الشيخ يوسف بن عيسى القناعي سنة ١٢٩٦ هـ الموافق سنة ١٨٧٦م[١]. لأب كان يعمل في التجارة، «وكان يملك سفينة - اسمها «شط العرب» - من السفن الكبيرة المعروفة في الكويت والتي كانت تستخدم حتى السنوات الأولى من القرن العشرين في الأسفار البعيدة لنقل السلع المختلفة بين الكويت والهند وشرق أفريقيا»[٢].

وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره اصطحبه والده في بعض رحلاته التجارية إلى اليمن والهند[٣].

وأطل شبح الأزمات على الفتى مبكرا وواجه ظروفا قاسية جراء ما تعرض له الوالد، إذ غرقت السفينة «شط العرب» سنة ١٣٠٩هـ - ١٨٨٩م خلال إبحارها بين زنجبار ومسقط (وكانت تحمل أربعة آلاف «مَنٍ» من التمر)، وغرق في تلك الكارثة محمد أخو الشيخ[٤].

واجه الأب أزمة مالية صعبة إثر هذه النازلة فرأى الفتى أن يعين والده بما يقوى عليه من العمل فاشتغل في نقل البضائع لحساب بعض التجار، وكانت سنة ١٨٩٣م عام الحزن بالنسبة له، إذ توفي والده فيها، وبذلك أصبح عليه أن يواجه الحياة بمفرده[٥].

■ طلبه العلم:

تلقى الشيخ يوسف تعليمه كما يتلقاه لداته من الكويتيين، فقد حفظ القرآن الكريم على يد الملا دخيل الجسار وهو في سن السابعة، ثم بدأ يتعلم الخط والحساب عند السيد عبدالوهاب بن السيد يوسف الرفاعي، واتجه بعد ذلك إلى دراسة الفقه والنحو ومطالعة كتب الأدب، لكن أعباء الحياة لم توفر له الوقت الذي يرجوه «وكان لزاما عليه أن يعمل بكسب رزقه فزاول التجارة حتى عام ١٨٩٨م حين عمل كاتبا عند أحد التجار المعروفين وهو السيد خلف باشا النقيب مدة أربع سنوات» [٦].

وفي عام ١٩٠٢ م غادر الشيخ يوسف الكويت إلى الأحساء لطلب العلم بصحبة أحمد ابن الشيخ خالد العدساني، وداوود بن صالح المطوع ونزلوا على الشيخ عبدالله بن عبدالقادر عالم الأحساء الشهير الذي أكرم وفادتهم وأقاموا في رحابه ينهلون من علمه، فقد قرأ الشيخ يوسف عليه ألفية ابن مالك وشرح التيسير في الفقه، كما درس على يد بعض العلماء قدرا لا بأس به من العلوم الدينية والنحو، فقد حفظ المنتهى والبشير في الفقه الشافعي[٧].

وعاد الشيخ إلى الكويت بعد أقل من عام ودرس على يد بعض العلماء أمثال الشيخ أحمد الفارسي، ثم شد رحاله مرة أخرى إلى البصرة ثم مكة المكرمة ليعود بعد ذلك وقد تيسر له من العلم والمعرفة ما أنفق في سبيله الجهد والمال.

■ أعماله:

❖ في مجال التعليم:

حظي التعليم باهتمام الشيخ منذ عودته من رحلته العلمية فبادر بافتتاح مدرسة صغيرة لتعليم القرآن الكريم ومبادئ الحساب والكتابة، ولم تدم طويلا حيث أغلقها بسبب المصاعب المالية [٨]. (١٣٢٨ هـ - ١٩١٠م).

ثم كان له دوره المهم في تأسيس المدرسة المباركية، وكان له الفضل في الإشراف على بنائها، ووضع مناهجها وإدارتها والتدريس فيها، وكان يدرس فيها علوم التجويد والحديث والصرف[٩]. (١٣٣٩ هـ - ١٩٢١م).

أما دوره في تأسيس المدرسة الأحمدية، فمعلوم، وقد أسند إليه أمر نظارتها [١٠]. وسعى من إجل إرسال الشباب الكويتيين لاستكمال دراستهم في بعثات علمية خارج الكويت وقد تحقق ذلك بإيفاد أول بعثة تعليمية إلى العراق سنة ١٩٢٤م.

وفي عام ١٩٣٦م رأت جماعة من تجار الكويت أن يصبح التعليم تحت الإشراف الحكومي، فأصدر الشيخ أحمد الجابر أمرا بتشكيل مجلس للمعارف يتولى شؤون التعليم، فأجريت الانتخابات وتكون المجلس من اثني عشر عضوا برئاسة الشيخ عبدالله الجابر الصباح وانتخب الشيخ يوسف بن عيسى مديرا فخريا للتعليم [١١].

ويسجل التاريخ للشيخ مشاركاته في تأسيس المكتبة الأهلية التي فتحت أبوابها للقراء سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣م لتكون نواة لما عرف بعد ذلك باسم مكتبة المعارف [١٢].

❖ **في مجال السياسة:**

سعى الشيخ يوسف إلى تأسيس مجلس للشورى في الكويت ونقلت هذه الرغبة إلى الشيخ أحمد الجابر إثر توليه مقاليد الحكم في البلاد، فوافق على الاقتراح المقدم إليه وشكل المجلس من اثني عشر فاضلا من أعيان البلاد [١٣].

وكان له دوره البارز في إنشاء المجلس البلدي، حيث تولدت هذه الفكرة في ذهنه إثر زيارته للبحرين سنة ١٩٢٩م، ونتيجة لمساعيه الدائبة فقد أُسست البلدية عام ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩م وانتخب الشيخ يوسف عضوا فيها [١٤].

❖ **في مجال القضاء:**

بعد وفاة الشيخ عبدالله الخلف الدحيان، طلب الشيخ أحمد الجابر من الشيخ يوسف أن يتولى منصب القضاء، فاعتذر الشيخ يوسف متعللا بتجارته، ولمعرفته بخطورة هذا المنصب، ولم يجد بدا من الموافقة أمام إصرار الشيخ أحمد على أن يكون ذلك لفترة مؤقتة، إلى حين العثور على قاض آخر وعلى ألا يأخذ عليه أجرا. وكان يسمى وكيل القضاء، وبعد عام ونصف العام طلب من حاكم الكويت أن يعين قاضيا مكانه، فاستجاب الشيخ لرغبته [١٥].

❖ **في مجال الثقافة والأدب:**

للشيخ يوسف مجلس مشهور في الكويت، نال مكانة رفيعة لما كان يدور فيه من أحاديث ودروس، وكان في بادئ أمره مجلسا يغلب عليه الطابع التعليمي، ورواده من طلبة العلم الشرعي.

ولأن أصحاب المجلس ممن نذروا أنفسهم للرقي

في أعمالهم وانتشال البلاد من وهدة التخلف الذي كان يضرب أطنابه في مناحي الكويت، فقد كان المجلس أول هذه الأمور التي فكر فيها، فلم يعد مقتصرا على الدروس الدينية، وإنما اهتم بالقضايا التاريخية والأدبية والسياسية، وزكت كل هذا، المجلات والصحف التي كانت تصل إلى المجلس، فيطلع عليها شداة الأدب والسياسة، وتنشأ عندهم الحماسة ما يجعلهم يؤيدون الشيخ فيما يذهب إليه من وجوه الإصلاح والمطالبة بتحديث المجتمع الكويتي.

■ مؤلفاته:

للشيخ يوسف مؤلفات قليلة مطبوعة ومثلها في المخطوط.

❖ وأول هذه المؤلفات:

١ - «المذكرة الفقهية في الأحكام الشرعية»: وهي رسالة مختصرة جمع فيها أمهات مسائل الفقه الإسلامي، ولم يتقيد فيها بمذهب معين، وكانت طبعتها الأولى في بغداد سنة ١٣٤٣ هـ ، ثم أعادت طبعها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت[١٦].

٢ - «الملتقطات (حكم وفقه وأدب وطرائف)»: ويدل عنوانه على محتواه، وقد صدر الجزء الأول في ١٣ من ذي الحجة ١٣٦٧ هجرية، وصدرت بعد ذلك خمسة أجزاء، ثم جمعت في كتاب واحد وصدر عن وزارة الإعلام (الإرشاد والأنباء سابقا) سنة ١٩٦٥م.

٣ - «صفحات من تاريخ الكويت»: كتاب صغير تقل صفحاته عن مائة، سجل فيه تاريخ الكويت منذ

نشأتها حتى وفاة الشيخ مبارك الصباح ١٩١٥م. وتحدث الشيخ فيه عن وقائع وأحداث عاصرها أو نقلها عن معاصرين له، وطبع الكتاب في مصر سنة ١٣٦٥هـ.

■ **شعره:**

للشيخ شعر قليل نشر في «تاريخ الكويت» لعبدالعزيز الرشيد، وكان صديقا له ثم ضمن هذه الأشعار أجزاء الملتقطات. وشعره تسجيل لمناسبات مرت به، وقد ضم أنواعا من المديح والرثاء وبعض قضايا المجتمع.

II- ثقافته الأدبية

يتبين لنا من سيرة الشيخ أنه بدأ حفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة، ثم توجه لدراسة الفقه والنحو ومطالعة كتب الأدب، ولازم الشيخ عبدالله بن خالد العدساني فقرأ عليه متن الآجرومية وأبا شجاع، ثم درس مبادئ الفقه ومتن الآجرومية عند الشيخ عبدالله بن خلف الدحيان.

قوت هذه الدراسة ميله إلى الأدب، ووجد في نفسه اندفاعا وتعلقا بعلوم العربية، وزاد من شغفه اطلاعه في بومبي على كتاب عنوانه (المستطرف في كل فن مستظرف) فأكثر من القراءة فيه. ولعل هذا الكتاب قد ترك في نفسه أثرا ظهر بعد ذلك في اهتمامه بجمع طرائف ونوادر وحكم ضمها كتابه (الملتقطات).

ثم كان ارتحاله إلى الأحساء طالبا للعلم وبصحبته أحمد بن الشيخ خالد العدساني وداود بن صالح المطوع، حيث نزلوا على عالم الأحساء المشهور وهو الشيخ عبدالله بن عبدالقادر، وهو عالم أديب فقيه، فدرس عليه ألفية ابن مالك إلى جانب دراسته في كتب الفقه الشافعي.

وعاد إلى الكويت لينهل من علم الشيخ أحمد محمد الفارسي؛ ثم عقد العزم على السفر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج والدراسة، وقبل موسم الحج بأشهر توجه إلى البصرة ليتلقى العلم على أيدي مشايخها، فقرأ الشافية وشرح السيوطي لألفية

ابن مالك، وعند وصوله إلى مكة قرأ البخاري ومتن ألفية ابن مالك في الحرم المكي على يد الشيخ شعيب المغربي، وطلب من الشيخ أيضا أن يعطيه دروسا في المنطق فوافق على طلبه.

وكان تحصيله العلمي المنوع في مكة زادا جديدا أضيف إلى كنوزه، فقد قرأ شرح المنهاج، وجمع الجوامع، وتفسير البيضاوي، وشرح الروض، وشرح جمع الجوامع [١٧]. بعد أن روى ظمأه وأحس أن ما قدر له تحصيله قد استوفى رجع إلى الكويت، ليبدأ في تعليم أبناء وطنه، فافتتح مدرسة لتدريس القراءة والكتابة والحساب والتجويد والفقه.

وكانت لديوانيته مكانة في نفوس شداة العلم والمعرفة، وأصبح ملتقى لكل محب للقراءة والاطلاع والمناقشة، فقد ضم الديوان مكتبة كبيرة حوت، إلى جانب المراجع وأمهات الكتب، المجلات والصحف المعاصرة.

وعندما سئل في مقابلة تلفزيونية عن الكتب وأثرها في تكوينه العلمي واعتدال آرائه، أجاب قائلا: «وكان لمؤلفات ابن تيمية وابن القيم ومجلة المنار الغراء أكبر الأثر في إنارة السبيل أمامي، وإماطة الستار الذي أبصرت من خلفه الحق واضحا، فنفرت بعده عن كل ما ألفته، أما اعتدالي في الآراء العصرية فيرجع سببه إلى مجلتي الهلال والمقتطف والمؤلفات المتوعة» [١٨].

جمع الشيخ يوسف إذن بين ثقافة تقليدية اهتمت بالتراث وتلقته تلقي السابقين، وثقافة عصرية تنوعت مطالبها ما بين كتاب مترجم أو مجلة شهرية أو صحيفة يومية.

وهدته هذه الثقافة إلى الاعتدال والتأني في إصدار الأحكام، وعدم التسرع في الرد عند النقد.

وبرزت من خلال هذه الثقافة موهبته الأدبية، إذ كان الشيخ شغوفا بقراءة كتب الأدب ودواوين الشعر العربي القديم والحديث، وكان ينظم الشعر في المناسبات المختلفة. وعلى غرار ما كان مألوفا عند العلماء أن يكون بينهم حوار وسجال يطرزونه بأبيات من الشعر قد لا يلفت نظر الأدباء أو النقاد، ويشيرون إلى هذا الشعر بأنه من شعر الفقهاء ويعدونه متواضعا لا يؤبه له.

وحين نقرأ تاريخ الحركة الأدبية في الكويت منذ بواكيرها، فإننا نجد اسم الشيخ يتقدم الأسماء، وإذا هو شريك في كل عمل ثقافي أو أدبي، فالمكتبة الأهلية (١٣٤١ هـ) والنادي الأدبي (١٣٤٢ هـ) وقبل ذلك عند تأسيس المدارس كالمباركية، التي كان له دوره المشكور في المشاركة في تأسيسها، وإلقاء قصيدة مدح في أصحاب الفضل في إنشائها [١٩] فكل ذلك شواهد على حضور وإبراز جهده وفضله.

ونستطيع أن نرى مكانته الأدبية بين معاصريه منذ أن بدأ الاهتمام بتدوين نشاط الأدباء وتوثيق أعمالهم، كما صنع الشيخ عبدالعزيز الرشيد في كتاب تاريخ الكويت أو في مجلة «الكويت» التي أصدرها بعد ذلك.

وتتضح منزلة الشيخ يوسف بن عيسى عند الشيخ عبدالعزيز الرشيد عندما يقول عنه: هذا الأستاذ الفاضل هو أحد أقطاب الحركة العلمية والفكرية في الكويت، وأحد العاملين في المشاريع الخيرية، بل هو

في الحقيقة مصلح الكويت الفذ وقد تفوق على من سواه بمعاضدة المشاريع النافعة ماديا وأدبيا، فتجده يبذل من ماله في سبيل إصلاحها ما يفوق بذل الكثيرين من مواطنيه أهل الملايين. ويبذل كذلك من وقته النفيس ما يعادل بذله للمال، كل هذا في حق الوطن المقدس الذي لا يعرف الجم الغفير له معنى. ولا غرو أن يمتاز هذا الأستاذ على إخوانه بذلك، فإنه قد جمع مع الثروة علما جما انكشف له به من الأسرار ما لم ينكشف لأحد من مواطنيه، وإلى هذه الحقيقة أشرت بقصيدة عاتبته فيها على أمر عتاب مداعبة ومزاح فقلت:

أبن لي فدتك النفس ذنبي ولا تخف
وما كان غير الحق قصدي وبغيتي
ولست أرى نقصا علي من امرئ
يبين خلالي الناقصات وزلتي
فما المرء إلا عرضة أينما سعى
لنقص وتقصير وسهو وغفلة
على أنني ما زلت أبحث جاهدا
عن السبب المفضي لهجر الأحبة
فلم أر حقا ما يبرر هجرهم
سوى صفر كفي وهو أصل بليتي
وذاك هو الذنب العظيم إذا بدا
لدى جامع الأمرين جهل وثروة
ولو كنت ذا مال ولم تك عالما
لقلت إذا من جهلة اليوم قد أتى
ولكنني ماذا أقول وعلمكم
به كنت حقا مثل شمس منيرة

وكنت به تحمي الضعيف من الأذى
وكنت به تبني علالي الفضيلة
وكنت به ملجا الكويت وأهلها
إذا ما الخطوب السود في القوم حلت[٢٠]

وإذا ما تتبعنا علاقته بأدباء عصره وبالمثقفين؛ فإن العد يطول بنا، لأن ديوان الشيخ يوسف كان يستقبل كل مهتم بشؤون الكويت، وكان أصحاب القلم من رواد مجلسه لما يطرح فيه من مناقشات أدبية، ويروى فيه من شعر وطرائف، ويستوقفنا ذلك في الفترة المبكرة من حياة النهضة الأدبية في الكويت، خاصة عند تأسيس النادي الأدبي، الذي ضم جمعا من أصحاب المواهب الأدبية إلى جانب من برز من الشعراء الشباب. وقد برز اسم الشاعر صقر الشبيب (١٨٩٦ - ١٩٦٣)، والذي كان صديقا للشيخ عبدالعزيز الرشيد، وقد أفسح له في تاريخه قسما لا بأس به ذكر فيه شعره وأشاد به [٢١].

وصقر الشبيب هو أحد من ربطتهم صداقة مع الشيخ يوسف، وقد شد من أزره عندما دارت رحى معركة كان الشبيب طرفا من أطرافها ورفده بقصيدة منها قوله:

وكفاك أنك في بويتك لابد
وسناء شعرك في الكويت أضاء [٢٢]

وقد ذكر الرشيد في كتابه «تاريخ الكويت» عمق هذه العلاقة بين الشيخ يوسف والشاعر صقر عندما قدم له قصيدة مطلعها:

أيا صقر الحجا وأديب قومي
وشاعرهم بإقرار العموم [٢٣]

ويؤيد قولنا في عمق هذه العلاقة ما سجله

الشبيب في ديوانه من قصائد أهديت إلى الشيخ يوسف في مناسبات مختلفة، مثل قصيدته المعنونة «الحر من يأبى الهوان» [٢٤]. وقصيدة «إنها الدنيا» [٢٥]، وهي في تعزيته في أخيه أحمد بن عيسى.

وكانت عادة الشاعر أن يزور الشيخ في بيته، ولما لزم بيته أرسل قصيدة يعتذر فيها عن عدم زيارته للتهنئة بالعيد، وعنوانها: «حبي يجذبني» [٢٦].

ووجه إليه قصيدة طويلة تبين حيرته في معتقده، كأنه يلتمس عنده جوابا لما اعتراه من هم وإشكال حيث يقول:

أيها أحمد غبا
يوم بعثي ومآلي
حرت فيما أجتبيه
رغم أبحاثي الطوال
فأنا أحير - يايو
سف - من ضب الرمال
وإذا لم يهدني الرشد ابن عيسى ذو المعالي
فأنا ما دمت من إشكال أمري في شكالي [٢٧].

وكتب الشيخ يوسف بن عيسى مقالة يدافع فيها عن المرأة وعن حقها في التعليم، فوجدت صداها في نفس الشاعر فأرسل إليه بقصيدة مطلعها:

قرأت مقالك الحر الجميلا
فألزمني لك الشكر الجزيلا
مقال منه حق الغيد يلقى
وقد طال المغيب به قفولا [٢٨]

وثمة قصيدة أخرى حواها الديوان وهي من شعره

المتقدم، إذ إن كتابتها كانت بمناسبة تأسيس المكتبة الأهلية، وفيها إشادة بدور الشيخ يوسف في تأسيسها[٢٩].

وعلاقة الشيخ بالرعيل الأول من الأدباء والشعراء تؤكدها إسهاماته في تأسيس المكتبة الأهلية والنادي الأدبي، ثم ما اجتمع في مجلسه بعد ذلك من شعراء وأدباء، وبعد أن انفرط جمع النادي الأدبي وتفرق.

وتلقانا في مسيرته أسماء لأدباء وشعراء بقيت أيامهم موصولة بأيامه من أمثال الشيخ عبدالله النوري والأستاذ عبدالرزاق البصير والشاعر عبدالله سنان.

III - شعره بين الرسالة والفن

سئل الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في مقابلة تلفزيونية عن شعره فأجاب: «أنا أقول الشعر ولست شاعرا[٢٠]» وقد بدأ نظم الشعر في مرحلة الصبا ثم انقطع عنه خشية إلهائه عن دروسه، ثم عاد إليه بعد ذلك كما تدل عليه قصائده التي قالها في مرحلة النهضة الأدبية بظهور أول مدرسة حديثة في الكويت.

وجوابه السابق جاء بعد أن جاوز سن الثمانين، وهو اعتراف صريح منه بأنه لا يسلك نفسه مع الشعراء وإن كان محبا لاتجاههم، ويقول الشعر بين آونة وأخرى إن عنت له مناسبة أو خاطرة، فهو يسجلها في أوراقه، ويحفظها في أدراجه، وقد واتته الفرصة أن يستخرجها وينشرها بين الناس عند طبع كتابه «الملتقطات» وإن لم تحو كل ما كتب، فهناك قصائد لم يدرجها في الكتاب المذكور وهي من قصائده المبكرة؛ وفيها روح الشباب وتوثبه وقوته.

وإذا أردنا أن نصنف أشعاره على حسب الموضوعات وجدناها لا تتجاوز أمور العقيدة والقضايا الاجتماعية والسياسية فيما مرت به الكويت من أحداث، ورثاء بعض الأصحاب، وشعر في الدعوة، وبعض المدائح والتهاني.

■ شعر العقيدة:

من البداهة أن نجد هذا النوع من الشعر يتصدر قائمة قصائده، فهو عالم وفقيه، رأى العلماء الذين

يدرس على أيديهم ينظمون الشعر ويتداولونه بينهم، خاصة عند ذهابه إلى الأحساء، والشيخ عبدالله بن عبدالقادر كان شاعرا من الشعراء البارزين بين علماء عصره في إنشاد الشعر. وربما كان ما شهده من شيخه وهو يرد على الشيخ عبدالله العدساني الذي وجه إليه خطابا يسأله توجيه الشباب الذين حلوا في ضيافته متعلمين أن قال شعرا:

وإن سألت عن الإخوان ما فعلوا

فهم على حالة بالجد متصفه

لهم قلوب على التحصيل عاكفة

كمثل أسمائهم ليست بمنصرفه[٢١]

وكانت أشعاره في هذا الباب مناجاة للخالق جل وعلا، فهو يقول:

أحنو إليك برأسي

تذللا وابتهالا

وأختشيك بسري

مهابة وجلالا

وذلتي لك تحلو

أما لغيرك. لا لا [٢٢]

وفي مناجاة ثانية يقول:

حسبي اطلاعك سيدي

بسريرتي وجليّ أمري

فأنا المقصر في الورى

أخفي القصور وأنت تدري

وأنا الذي ألبستني

حللا سمت عن حصر شكري

فاتمم جميلك يا جميـ

ـل الصفح عن ذنبي ووزري [٣٣]

ومخاطبة لله وشكوى من تقصيره في حق ربه، في خلوة له بين يدي معبوده، يقول:

لي سلوة في خلوتي وهجودي

وتذللي في معبدي وسجودي

أشكو إليك وأنت أعلم بالذي

أشكوه من ضعف ومن تسهيد

وترى ترقرق أدمعي في محجري

ويسيل منها أدمعي كخدود

من أجل خوفك سيدي لكنني

في ظل عفوك يطمئن وجودي [٣٤]

ويتقدم إلى مقام النبي المصطفى مادحا:

يا رحمة للعالمي

ـن ويا مناراً للهدى

ياصاحب الخلق العظيـ

ـم وبحر جود بالندى

ماذا يقول الواصفو

ن بوصف حسنك مذ بدا

وبما يقول المادحو

ن بشعرهم اذا شدا

فالله زادك بالثنا

وكفى بربك مسعدا

أهدي إليك فريدة

ويعـــوقــــهـــا طـول المدى
فـــعـــسى الأثيـــر بحـــملهـــا
يــكـون عــنـي مــنــشـــــــدا
وعــــسى القـــبـــول يزفـــهـــا
إلـيـك يـــا عــلـم الــهـــــدى
وعـــســـاك عني راضـــيـــا
يا خـــيـــر هـاد يقـــتـــدى
شـــــوق إلـيـك يـهـــزنـي
مـــا مـــر ذكـــرك بالـنـدى
ويصـــــدني عـن هـجـــرتـي
ألـم ألـمّ فـــأقـــعـــدا
فـــاقـــبـل فـــديتـك ســيــدي
عــــذري وكـن لـي مــرشـــدا
وعـلـيك يـا خــيـــر الـورى
مـنـي الـســـلام تـعــبـــدا [٣٥]

ولأن شهر الصوم تتناشد فيه الأشعار عند الفقهاء خاصة، وعند كثير من الشعراء، فإن الشيخ سجل خواطره حول الشهر في القصيدة التالية:

عليك ســلام الـلـه يـا شــهــر إننا
رأيناك مــعـنى للـزمـان اســتـندناه
ويا شــهــر لا تبـعـد فـأنت وسيلة
وذو قــدم عند الحـبـيب ادخـرناه
ويا شـهــر لا تبـعـد لك الخـيـر كله
فــيـــا رُبَّ حَـمْـدٍ عمَّ بُـرك أولاه
ويا شـهـر لا تبـعـد لك الخـيـر كله

فـــيـــا رب مـطروح نجـــا بـك أواه

يا شــهــر لا تبــعــد لـك الخــيـر كله

فـــرب مـــحـب تحت ظـلـك نـاجـــاه

عليك ســلام الـلـه شــهــر صــيــامنا

وشـــهـــر تلافـــينا لـدهـر أضــعـناه

تـفـــوح ثغــور الـصــائمين مـــســـاءه

فـلا المسك يحكيـهــا بنفـحـــة رياه

عليك ســلام الـلـه شــهــر قـيــامنا

وشـــهـــرا بـه الـقـــرآن يـزهـو بقـــرّاه

تـطيب بـه الأصــوات من كل وجــهـــة

وتـعـــذب منـه بـالـدراســـة أفـــواه [٣٦]

ويأتي العيد فيرقب الناس في غدوهم ورواحهم ويكتب قائلا:

خـــرج الـنـاس يـــوم عـــيـــد وراحـــوا

رافـــلـــين بــزيـــنـــة وســـرور

وأرى الـعـــيـــد في رضى الـلـه عني

فـهـو عـيـدي وبهـجـتي وحـبـوري [٣٧]

وعندمـا وجـدت بعض المصطلحـات رواجـا في تصنيف الناس بين رجعي وتقـدمي إظهـارا لسلبيـة متبع اتجـاه دون سـواه، رأى الشيخ مـا وجـه لعلمـاء الدين من سخرية وتهكم فآذاه ما يسمع فكتب قائلا:

إذا كـــان مـن يـتـــبـع ديـن الـهــدى

ويـقـــتـــدي بـســيـــد المرسـلـين

تـدعـــونـه الـرجـــعـيّ فـــي ديـنـــه

فـــإنـني مـن أول الـراجـــعـين

فــــقلـــدوا لينــــين في هديــكــم
لأنـه داعـــــيـــــة الملحـــــدين [٣٨]

■ الشعر الاجتماعي:

مـا انفك الشيخ يوسف القناعي يعـمل على رفـعـة وطنه، ويهتم لمواطنيـه فيمـا يصلح أحوالهم، وقـد رأينا مشاركته منذ شبابه الأول في كل عمل يؤدي إلى تحسين الأوضـاع في بلده، وظلت مـتـابعـاته لكل مـا يـحيط به مستمرة دائبة، فالصحف والمجلات التي تحمل جديدا في البـلاد العربية وتنقل أفكارا ومـحـاورات بين العلمـاء تقع بين يديه فيـدرسها ويتـأثر ببعضها، فيؤيد أو ينقد أو يعــتــرض، ويهـتم بما لاقى عنده قـبـولا فـينشـره في ملتقطاته معلقا عليه في بعض الأحيان، وقد يوجه كتابا إلى جهة من هذه الجهات شارحا وجهة نظره وداعيا إلى موقف يوحد المسلمين ويبعد الشقاق حتى تزول أسباب الفرقة المؤذية ويجتمع الشمل على خير.

وفي شعره الاجتماعي ما هو أدخل في باب آخر نرجئ الحديث عنه الآن ونقدم ما لاحظه الشيخ من عـادات دخيلة طرأت على تصـرفـات بعض الأسـر أو الأفراد أو ما تأثر به الشباب من بدع وافدة.

يقـول الشيـخ في مـا لاحظه من اسـتـجـابة بعض الأسر إلى الدعوات المختلطة:

إذا دُعـــــيت فــــأت مـع زوجـــــتـك
لتـــحـــضـــر المائـــدة العـــاليــه
وإن رمــــاك الــنـاس في ســــبــــة
فــــقل لهم ذي مـــوضـــة جــاريه
جـــاء لـنا الغــرب بهـــا تحــفـــة
زينهـــا الشـــيطان بالعــافــيــه [٣٩]

وآفة الخمر التي كانت مألوفة في فترة زمنية عاشها المؤلف، ورأى تهالك الكثيرين على احتسائها، فوجه إليهم هذه الأبيات شفقة عليهم من آثارها:

يا مـــدمن الخـــمـــر قل لي
هل في الجنون مـــســـره
وهـــل إذا مـــت مـــنـــه
ســـعـــادة أو مـــضـــره
تبـــيـــع عـــقـــلا وجـــســـمـــا
بـخـــزيـــة ومـــعـــره [٤٠]

ويعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى محاربا ما جاءنا من الغرب من سيئات وجدت لها رواجاً لدى بعض ضعاف النفوس فيقول في مقطوعة تحت عنوان «التقليد»:

يا قومنا قد جاءنا الغرب بكل ملعنه
والغرب يهدي للضلال وهي فيه شنشنه
قلده أبناؤنا لا ليكونوا خـــونه
بالسيئات قلدوه لا بفضل الحسنه
فشربوا الخمر وكل المسكرات ملعنه
وجـدهم في سكرهم عربدة ودندنه [٤١]

وعندما يرى أن التقليد قد انتقل إلى العادات والأخلاق والتعامل واللباس كتب بيتين محذرا وناهيا:

لا تـقـــلـــد أجـــنـــبـــيـــا
بـلـبـــاس أو خـــصـــال
واجـــتـــهـــد إن كنت شـــهـــمـــا
تك مـــحـــمـــود الفـــعـــال [٤٢]

وله مقطوعات عن الطفرة التي حدثت في الكويت أوائل الخمسينات، وتدفق أعداد كبيرة من الوافدين

واختلاط السكان بهم وتأثرهم بعاداتهم وتقاليدهم فانتقلت هذه العادات السلبية إليهم دون تبصر أو معرفة بما تؤول إليه نتائجها، وخص الأجانب ومطامعهم في الكويت، وحذر من مخادعتهم لأهل البلاد ومن تلونهم من أجل مصالحهم، حتى إذا انكشف ما كان خافيا أحسنوا الإجابة والتخلص بالاعتذار عن عدم المعرفة.

ولأن الشيخ يوسف قضى حياته دارسا وباحثا في علوم الفقه والحديث وتقلد مناصب كثيرة كان القضاء من أهم ما تقلده، وأصبح مع مرور الأيام قاضي الكويت الذي يشار إليه عند كل مسألة ويرجع إليه حتى في سنه العالية، فطبيعي أن يلحظ أن القضاء قد اهتمت به الدولة اهتماما جعلها تنشئ له الإدارات والمباني وتشرف على تنظيمه تنظيماً حديثا حتى استقر مفهوم العدل ولهجت به الألسن.

يقول الشيخ يوسف عن العدل:

العدل يبني في الكويت منارة
لتضيء للإنسان طرقا هاديه
وليحيي بانيها بحسن دراية
وسياسة وإثارة متواليه
قل بربك هل رأيت حكومة
تبني بناها في العصور الخاليه؟
وترى الحياد مع السلام أساسها
تبني عليه قواعداً مترامية
عنها خذوا وبها اقتدوا في شأنكم
ودعوا الخلاف بطيب نفس راضيه
يا مالك الأملاك احفظ عرينا
برعايتك ياذا المعالي الساميه (٤٢)

وتغنى بوطنه وأظهر حبه وحنينه إليه عند غيابه عنه، كما تغزل فيه مادحا ومفتخرا. ويسجل ذلك في قوله:

إن الكويت بلادي
من والد بعد والد
وإنني لفخور
بساكنيها الأماجد [٤٤]

ويتشوق إليها وهو على بعد يسير منها فيرسل إلى صديقه الأثير الوجيه شملان بن علي آل سيف وكان غائبا في الهند يبثه ما يعاني من الفراق:

وإني على ما فيه من رونق الزهر
وحسن مياه للفرات به تجري
إذا طار شحرور العراق مغردا
يطير فؤادي نحوكم حيث لا أدري
وهل أنت يا أنسي من الخلق عائد
على مهجة ذابت من البعد والقهر [٤٥]

وامتدت أشعاره في الوطن إلى الرد على الدعوة التي قادها حاكم العراق عبدالكريم قاسم بعد إعلان استقلال الكويت بضم الكويت إلى العراق، وتحدث عن جرائم حاكم العراق في حق الشعب العراقي وذكره بعقوبة الله لأمثاله من الظالمين.

وعندما افتتح مجلسه في منطقة «السالمية» بعد انتقاله للسكن فيها في الأربعينات، وزاره العديد من رجالات الكويت أنشأ الأبيات التالية:

لوذاننا أحسن من لبنانكم
وبحرنا الساجي يمد ويجزر

أمـا الهـوا فـهـو الشـمـالي غـالبـا
وفـي الشـتـا كل البـلاد تمـطـر
تجـد الفـواكـه وفـرة ورخـيـصـة
تـأتـي لـنـا مـن كـل فـج يـذكـر
لـو نـدرك الخـلـد لـقـلـنـا جـنـة
مـا تشـتـهي الأنفس فـيـهـا يحـضـر[٤٦]

ولوذان هنا تعبير عن منطقة السالمية، إذ كان الأمير الشيخ أحمد الجابر الصباح قد أطلق عليها هذا الاسم.

وعن الأم ومكانتها وتقديرها والبر بها كتب هذه الأبيات:

هـنـيـئـا لـلـذي لـديـه أم
يـراهـا بـالـغـداة وبـالأصـيـل
يـحـيـيـهـا بـلـطـف واحـتـرام
وعـطـف كـالـشـفـيـق عـلـى الـعـلـيـل
يـذل لـرحـمـة ويـطـيـع أنـسـا
لـهـا مـا دام في دار الـرحـيـل[٤٧]

ومن خلال ما سجله الشيخ في مقتطفاته إعجابه بلحن قدمه الملحن الكويتي حمد الرجيب، فنال استحسان الشيخ فأرسل بالبيتين التاليين:

قـد لـذ لحـنـك يـا حـمـد
وبـه عـلـوت بـكـل جـد
فـاسـعـد وأنـعـش مـن نـأى
عـنـا ومـن سـكـن الـبـلـد[٤٨]

ويتوجه إلى المطربين في الكويت بعد أن يسوق حوارا دار بين اسحق الموصلي والعطوي وهو أحد الماهرين في الجدل وذلك في مجلس القاضي يحيى بن أكثم ويتمنى أن يحذوا حذوهم، يقول:

هل مــثل اســحــاق فــيكم يا مــغنينا
وهـل لنا مـــثل يحــيى في نواديـنا
ليـصلح الحـال بين العـرب أجـمـعهم
ويجـعل الـدين حكمـا مـاضيـا فـينا
ونســتـريح من أسـمــاء قـد ابـتـدعت
فــفــرقــتنـا كـمــا أودت بماضـيـنا [٤٩]

■ **المدح:**

هذا الغـرض من أغـراض الشـعـر يكاد لايخلو منه ديوان من دواوين الشعـر العـربي، ومن الشعـراء من لا يجيد سواه وقل منهم من ترفع أن يلج بابه.

وللشـــيخ يوسف القنـاعـي بعض القـــصــــائد والمقطوعـات أملتـهـا عليـه أحـداث ومنـاسـبـات كـمـا فرضتها عليـه أشواق النفس لخل قضت الأيام بينهما بالفراق إلى أمد غير معلوم.

ومن أوائل مـا يطالعنا من شـعـره في هذا الجـانب تلك القصيدة التي هزت أعماقه لأريحية المحسنين من أهل الكويت، وهم يتسابقون لإنشاء أول مدرسة وهي المدرسة المباركية تقوم على أرض بلدهم، وكان جود الموسرين من آل إبراهيم: الشيخ قاسم والشيخ عبدالرحمن قد تبرعا لبناء المدرسة بخمسين ألف روبية وبعث هذه القصيدة والإشادة بالفضل الكبير الذي أسدياه لأبناء الوطن. وقال:

هـكـذا الـفـــــضـل وإلا فــــــلالا
إن للـفـــضـل وللـمـــجـــد رجـــالا
يـعــــرف الـفــضـل ذووه فـي الـعـــلا
فـــــــهـم الأبـطـال إن رمـت نـزالا
قم بـنـا يا صـــــاح نجلو ذكـــــرهم
فـــبـــــه الأرواح تـرتـاح ثـمـــــالا

ودع الأطـــلال والـــربيـــع ومـــن
أخـــذ الألبـــاب تيـــهـــا ودلالا
ودع الأحـــور مـــعـــســـول اللمى
إن في اللحظ ســهـــامـــا ونبـــالا
ودع الـراح وحـــالات الـهـــوى
فـــهـي تكســوك جنونا وخـــبـــالا
ثـم صـــــــرح لا (تـكـنـي) عـنـهـم
فـــهم الأنجـاب فـــعـــلا ومـــقـــالا
آل إبـراهـيـم هـم أهـل الـوفـــــا
هم نجـــوم بـســـمـــا المجـــد تلالا
وهـم الســـادات هم أهـل العـــلا
وهـم الكهف إذا مـــا الخـطب مـــالا
حـــملوا الدهـر مـــعـــال أثقلت
كـــاهـل الدهـر يمينـا وشـــمـــالا
غـــيـــر بدع إن تســامـى فـــرعـــهم
أو يـــنـــل مـن ذروة الـــفـــــــضـل
أصـــلـــهـــم زاك تـــدلـــى زهـــره
فلذا طابوا فـــروعـــا وفـــعـــالا
إن للمـــجـــد لهم في قـــاسـم
علمـــا يـخـــفـق جـــودا وجـــلالا
فـــهـــو المفـــضـــال والـنـدب الذي
قـــد تســـامـى بمـعـــال لن تنالا
تـنـشـــر الكـتـــاب مـن بـين الملا
ذكـره المحـمـود فـضـلا وخـصـالا
لم يكن في الخيـر من جـمـعـيـة
لم تـرد من ذلك البـــحـــر زلالا
وســـل الأبـــنـــاء تـــروي بـــذلـــه

في معـــال قــد تفــيــاها ظلالا

لو ســألت الدهر عــمن قــد مــضى

هل رأى ســمــحــا كــهــذا قــال لالا

غــيــر أني لست أنسى مــاجــدا

فــاضــلا فــاض جــمــيــلا ونوالا

عن ياصـــاح بتـــذكـــار لـه

فلقـــد طاب أبو عــوف فـــعــالا

باسم الثـــغـــر لمرتاد الندى

عنده كم حل من عـــســر عــقــالا

حــبس النفس على نيل العـــلا

فـــيـــه تكسب عـــزا ودلالا

دمـــتم بالخـــيـــر يا أهل النهى

مـــــا بدا برق بليل وتلالا

وعليكم بالخـــيـــر آل ابراهيم مـــا

طلع الفـــجـــر ســـلام يتـــوالى

من أديب ليس يرجـــوكم ندى

بل ولا يرجـــو من المخلوق مـــالا(٥٠)

ولما أسس الوجيه شملان بن علي مدرسة السعادة سنة ١٣٤٣ هـ في الحي الشرقي لأولاده وأولاد أقاربه ولثلة من الأيتام الفقراء، فاضت قريحة الشيخ يوسف بهذه القصيدة تنويها بصنيع صديقه الأثير.

أيا من شـــاد للأيتـــام دارا

حــبـاك الله مــجـدا واعــتـبـارا

وأولاك الجليل جليل فـــضل

يشـــيـــد به من العليـــا منارا

وأسكنك الجنان جنان عـــدن

تحل برحـــبـــهـــا دارا فـــدارا

لئن شيدت للأيتام دارا
أضاء العلم فيها واستنارا
فكم واليت معروفا لراج
بنيل لا يقاس ولا يجارى
وكم لك في الجميل جميل ذكر
يؤم بنا إذا ما المجد سارا
ودارك للضيوف لخير دار
تناديهم بترحيب جهارا
وبيتك في البيوت أجل بيت
سما فضلا وجودا واعتبارا
فيا (شملان) يا رف اليتامى
وملجأ البائسات من العذارى
أزف إليك شكرا مستديما
متى ما لاح بدر أو توارى
وأتحفك الثناء ثناء صدق
أراك له محلا بل قرارا
فواصل حسن سيرك باجتهاد
تنل ذكرا حميدا وافتخارا
ودم يابدر للأيتام نورا
وسورا حاط مجدا واستدارا [٥١]

وحمل إليه البريد خطابا يقدمه في ملتقطاته بقوله: «جاءني من أهل السنة والجماعة في طهران كتاب خلاصته أنهم يبلغون ثلاثين ألفا عددا، وليس لهم مسجد يقيمون فيه الجمعة والجماعة، واجتهدت في مساعدتهم باكتتاب لم يقصر أهل الفضل من الكويتيين كما هي عاداتهم عن المساهمة فيه ونجحت بفضل الله وكان أكبر من ساعد في هذا المشروع

شيوخنا آل الصباح فلهذا أحببت أن أخلد لهم الذكر على هذه الصحيفة ليكونوا قدوة لغيرهم:

يا رجال الصباح بورك فيكم
أنتم خير من تولى وسادا
لكم في العطاء ذكر جميل
شاع بين الورى وعم العبادا
أسأل الله أن يتم عليكم
فضله بالهدى على ما أرادا [٥٢]

وكانت الصداقة التي تربطه بالشيخ عبدالله السالم الصباح متينة تعود لأيام الشباب، وقد مدحه عندما تولى الحكم بقوله:

الله أعلم يجـ
ـعل أمرنا في حكم ذاتك
فلذا ترانا سائليـ
ـن الله يفسح في حياتك[٥٣]

وكتب إليه مهنئا في يوم الاستقلال الوطني:

أهنيك في عيد التحرير كلما
بدا طالع للشمس في كل مشرق
وأرجو لك التوفيق ما دمت سالما
تقوم بعدل في البلاد وتتقي
وإني أهني الشعب فيك لأنه
يرى أنك الماء الذي منه يستقي
فدم ابن سالم حافظا لكويتنا
حامي حماها من حدود ومرفق [٥٤]

وأعجبه ندى صديقه المحسن عبدالله عبداللطيف العثمان فأرسل إليه مادحا:

يكفيك عبدالله أنك واحد
في الجود في هذا الكويت فريد
ولئن حسدت على التفوق في الندى
إن اللئيم مع الكريم حسود(٥٥)

■ **الرثاء:**

للشيخ يوسف قصيدتان في الرثاء أولاهما في مجلة الكويت والعراقي وهي في رثاء شيخه المرحوم الشيخ عبدالله الخلف الدحيان، الذي توفي في أواخر رمضان من عام ١٣٤٩ هـ، والثانية في رثاء صديقه الأثير الوجيه المحسن شملان بن على آل سيف الذي وافته المنية في ١٤ من ربيع الأول سنة ١٣٦٤ هـ وقد نشرها في الجزء الأول من كتابه «الملتقطات».

ففي القصيدة الأولى نعرف أنه كان من مؤبني الشيخ الدحيان الذي كانت وفاته خسارة فادحة للعلم والوطن وقد «أقيم له حفل تأبيني عظيم في المدرسة المباركية تكلم فيه أكثر من خمسة عشر مؤبنا، بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته، حضره حشد عظيم من أهل الكويت وفي مقدمتهم أمير الكويت المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح، والشيخ عبدالله السالم الصباح» (٥٦).

في هذه القصيدة يقول منشدها (٥٧):

يا راحلا عنا بذاتك
رفقا فإنا من هواتك
فالناس حولك في الممات
كمثلما هم في حياتك (٥٨)
لا فرق بين الحالتين

سـوى سكـوتـك عـن عـظـاتـك[٥٩]
هم حـول قـبـرك ينـحـبـون
كـمـا بـكـوا من بيـنـاتـك
يـبـكـون حـولـك حـسـرة
وعلى صـفـاء في صـفـاتـك
وعـلـى الـنـزاهـة والـتـقـى
وعلى الفـضـائل من سـمـاتـك
وعلى الفضيلة والقناعة والجزالة في صلاتك
أرثيك يا بحر العلوم ولست أنسى فضل ذاتك
مـن لـلـدراسـة فـي الـكـويـت
ولـلإفـادة مـن هـداتـك
فـالـعـلـم أصـبـح مـدبـرا
وعـن المـدارس فـي ممـاتـك
والديـن أوهنه الـسـقـام فـصـار حـقـا من نـعـاتـك
يا راحـلا نم في الأمان إلى القيامة في سباتك[٦٠]
واهنأ بجنات النعيم جزاء نفعك في حياتك[٦١]

والشيخ عبدالله الخلف «لم يحزن شعب بأكمله بوفاة فرد مثلما حزن الشعب الكويتي يوم وفاة الشيخ عبدالله بن خلف ... حتى إن الناس كانوا يعزي بعضهم بعضا، لأن المصيبة لفقده عامة ... لم يفقده أهله وذووه فحسب، بل فقده الكل، وبكاه الكل، حتى في بيوتهم» [٦٢].

ومما سجله الأديب خالد سعود الزيد في ترجمته قوله: «ولقد رثاه الناس بدوا وحضرا من شتى الأقطار العربية والإسلامية وبلغ مجموع القصائد التي قيلت في رثائه رحمه الله (١١٤) قصيدة كانت موجودة بخط والدي، غير أني أضعتها ويا للأسف.

ولقد حدثني والدي رحمه الله بأن هناك نسخة لهذه المراثي موجودة لدى ابن آخت الشيخ عبدالله الخلف وهو أستاذنا الشيخ: «أحمد الخميس» [٦٣].

ومن القصائد الطويلة في رثائه قصيدة الشاعر صقر الشبيب، ويبدو أنها قيلت بعد فترة من وفاته وفيها إشارة إلى حزن الشيخ يوسف بن عيسى على شيخه الجليل، يقول صقر:

فبكاك مصلحها ابن عيسى عالما
أن البكاء على علاك وفاء
وبكاك مبكى يوسف أهل النهى
فغدت تعيد صداهم الدهماء [٦٤]

وتكاد قصيدة الشيخ يوسف ترسم صورة لما كان يدور حوله من حزن لف الكويت وأهلها، وحيرة قد علت الجميع لفقد هذا العالم الذي ظن الناس أن وفاته تعني رحيل العلم عن الكويت، وأن الكويت قد خلت من عالم يلمون به ويلتفون حوله، وهذه الصورة قد تعززت بقصائد الرثاء الأخرى.

وقصيدة الشيخ يوسف هي زفرة حرى من تلميذ نحو شيخه، أحس الحاضرون بعدها بمدى مصيبة الشيخ في فقد أستاذه.

أما القصيدة الثانية، وهي في رثاء صديقه شملان بن علي فيقول فيها: [٦٥]

في ذمة الله يا شملان ترحال
وصيّب الدمع في مثواك هطال
في ذمة الله ذاك الجسم أودعه
قبرا عليه من الرضوان إجلال
في ذمة الله روح بالجميل سمت
لها على الخير إقدام وإقبال

إن أبعـــدتك المنايا بعـــد ألفـــتنا

فــأنت في القلب يا شـــمــلان نـزال

فــذا خــيــالك في عــيني ألاحظه

وفي فــمي ذكــرك المحــبـوب سلســال

مـصـيـبـتي فـيك عظمى لا تطاق وإن

أظهـرت صـبـرا فـهـذا الصـبـر منهـال

وإن تجلدت بين الناس مــحــتــسـبـا

فـــفـي فـــؤادي بـركـــــان وزلـزال

أشكو إلى الله نـارا قـد وهت جـسـدي

وقـــودها بـالحـــشى همّ ويـلـبـــال

أشكو إلى الله بعـــدا مــالـه أمــد

وفـــرقـــة مـــالهــا حـــد وآجـــال

عـــسـاه يجـبـر قلبـا بات منصـدعـا

مـكـدرالبـــال لا يحـلـو لـه حــــال

ويسكـن الـراحل المرحــــوم جنتــــه

فـهـو اللطيف وللإحـسـان فـعّـال

هذا وخـتــمي بما قـد قلت مـبـتـدئا

في ذمـــة الله ياشــمـــلان تـرحـــال

وهذه الصداقة العميقة التي ربطت بين قلبيهما أهاجت قريحة الشيخ عند فقد صديقه الذي طالما اشتاق إليه عند فراقه، ولطالما كاتبه إن سافر أو انتحى في مزرعته في «أبو حليفة» وقد أرسل له رسالة في عام ١٩٢٨ يشرح شوقه إليه، فيقول: (٦٦)

لا أوحش الله منك القـلـب شـمــلان

ولاخـلا منك منك أصـحـاب وخـلان

إن كنت في ذي الحليـفـة ساكنا فـرها

فـــالصب منكم حليف الهم ولهـــان

وشملان في الناس بالنسبة إليه ليس كسواه من الأصدقاء والمقربين، فهو المصطفى من بينهم وقد دلت سيرة حياته أنه وشملان أقرب من أخوين تلازما واتصالا، فلا شك إذن في أن يجزع عليه هذا الجزع كله، وأن يعبر عن حزنه بأن صديقه وإن آواه قبر التراب فإن محله في القلب غير مفارق وأنه يتمثل له في كل حين، وأن المصيبة فيه مما لا يطيقها جسده الواهي وإن أظهر صبرا ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يُجأر بالشكوى إليه ليلهمه الصبر والسلوان.

وقوله:

أشكو إلى الله بعدا ماله أمد
وفرقة ما لها حد وآجال

من أدل أبيات القصيدة على ما يعتلج في صدره من هم، وما يساور فكره من بلبال، وما بينه بصورة أكثر دلالة ووضوحا عندما قال:

وإن تجلدت بين الناس محتسبا
ففي فؤادي بركان وزلزال

ويتوقف الشيخ يوسف عن رثاء الراحلين، فلا نكاد نجد له في التالين قصيدة، ولا ندري إن كان قد رثى من عاش ودادهم أم أن فجيعته في شيخ وصديق كان لهما في حياته من الأثر ما هانت عليه الدنيا بعد ذلك، فتعزى بالتفكر في أحوال الدنيا من حوله واكتفى بتقديم العزاء لذويهم.

لا نجد شيئا مكتوبا أو منشورا، فالملتقطات قد توقف إصدارها منذ الستينات، ومن كتب عنه لم يشر أن في أوراقه ما ينبئ عن ذلك.

IV - نظرات فنية في شعره

يقتضينا الأمر وقد طوفنا في ملتقطات الشيخ يوسف بن عيسى وبعض آثاره الأخرى أن ننظر نظرة قريبة إلى هذه الآثار نلقي فيها الضوء على جوانب من أعماله التي مرت بنا، وهي نظرات لا تستقصي وتفصل، فما هو ببحث يلتزم بأصول البحث في الدقة والتمحيص ولكنها إطلالة نعرض من خلالها ما تحسن الإشارة إليه تنويها أو استدراكا.

وأول ما يتبادر إلى الأذهان حول تصنيف شعره، هل هو شعر إبداعي أم هو شعر تقليدي، أم هو شعر مما يكتبه الفقهاء لا يزيد على ذلك.

لعلنا بعد أن قرأنا ما أثبتناه، تبين لنا أنه شعر من شاعر عاش مرحلة النهضة في بدء بروزها وجدتها، وخالط شعراء ثقفوا ثقافته أو أقل منها، فقد كان منهم من لم يتلق تعليما دينيا سوى ما تلقاه في الكتاب، ثم شدا شيئا من الشعر المطبوع من قديم وحديث وعرفنا أنه كان طالب علم شرعي تلقى دراساته في الفقه والحديث و التفسير وما تيسر له من علوم النحو والصرف، وربما بعض من العلوم البلاغية؛ وعاش في محيط يتناشد فيه العلماء الأشعار حفظا ونظما فأغراه ذلك أن يكون أديبا شاعرا إلى جانب ما يتلقاه من علم شرعي.

ولعله أيضا لم يدرس علم العروض فليست هناك إشارة توحي بأنه كان من ضمن ما تلقاه من دروس، وربما كان هذا سببا من أسباب اضطراب الأبيات الشعرية عنده.

■ شعر الفقهاء:

مجموع شعره يدل على تأثره بالفقهاء الشعراء، فالموضوعات التي طرقها هي المتداولة عند الفقهاء وتكاد صورة المجتمع الإسلامي تقدم من خلال ما يتناوله الشاعر في حديثه عن العقيدة والعبادة، ومعيار الإنسان الصالح وغير الصالح وعن الحوادث السياسية والعادات الاجتماعية وعن شؤون فكرية وجوانب مالية، و قد تعرضنا للحديث عن المدح والرثاء عنده مستشهدين بنماذج من شعره في كلا اللونين.

ولا يعني نسبة شعره إلى الفقهاء أنه خارج نطاق الشعر المألوف، فمن يطلع على شعر الفقهاء على مر العصور يجد فيه من بلغ القمة السامقة وارتفع بشعره إلى رتبة عالية بين شعراء زمانه، ومنهم من كان في مرتبة وسطى، قبل شعره وذاع، وقليل منهم من لم يرتق شأنه شأن كثير من الشعراء الآخرين من أبناء طبقته أو من سواهم في فترات تاريخية أخرى.

وقد تتشابه الأفكار عندهم، فانقطاعهم إلى العلم وإيثارهم للكاتب من طريف أقوالهم وعدهم ذلك أعظم متعة روحية تقر بها أعينهم وتغنيهم عن كل متعة روحية يشتغل بها غيرهم، وللشيخ يوسف مقطوعة يقول فيها : (٦٧)

ولي لذة عند القراءة لم أجد
بطول حياتي مثلها بنعيمي
وتلك لأني استفيد فوائدا
تريح فؤادي من شقاء همومي

فـــيـا رب زودنـي بحـسـن درايـة
وزد نـاظـري فـي حـدة لعـلـوم

وهي شـبـيـهـة بما قـال القـاضي أبو الحـسن الجرجاني (٦٨):

مـا تطعـمت لذة العـيش حـتى
صـرت للبـيت والكتـاب جليـسا
ليس شيء أعز عندي من العلم فما أبتغى سواه أنيسا

ولو تتبعنا أشعاره باستقصاء وتمهل لعثرنا في شـعـر الأقـدمين على مـا يدل على تأثره بهم، وهي ظاهرة تتكرر عند كثير من الشعراء وربما كان ذلك من أثر اطلاعـهم على هذه الأشـعـار وتمكنهـا من الذاكرة.

ولعلنا لاحظنا أن قصيدة المدح التي أنشأها في المحسنين من أهل الكويت أن مطلعها:

هكذا الفضل وإلا فلا

هو مطلع قـصيدة المتنبي ذاتها في مدح سيف الدولة:

ذي المعـالي فليـعلون من تعـالى
هـكـذا هـكـذا وإلا فـلا لا (٦٩)

■ **الموسيقى:**

شـعر الشيخ يوسف القناعي قليل، ودراسة ظاهرة من الظواهر فيه لا تسعف الباحث لقلة المادة محل الدراسة ولكننا سنخطو في هذا المجال لنلتمس بعض ما يمكن تطبيقه على نتاجه الشعري.

فالبحر الطويل مثلا يتصدر قائمة البحور عنده ونلحظ استخدامه في المدح والرثاء وهما مما يحتاج معه الشاعر إلى نفس طويل ليبلغ المعنى الذي يريده،

كذلك جاء استخدامه في الرسائل وفي التهاني وفي المعارضات.

وكان البحر الكامل بتفعيلاته المتكررة في شطريه أكثر ملائمة لطبيعة الشاعر في المناجاة وفي الشعر الوطني الذي احتاج إلى كشف بعض الأسرار وكان البحر الوافر التام أكثر مناسبة له في حديث النفس والجانب العاطفي.

وكان مجزوء الرمل قد استخدم في ثلاث مقطوعات لا تتجاوز سبعة أبيات تنوعت أغراضها وكلها تدل على حالة نفسية إزاء موقف من المواقف، ثم كان البحر السريع واستخدم في مقطوعتين وكذلك مجزوء الرجز والبحر الخفيف والمجتث واستخدما في مقطوعتين لكل منهما ومقطوعة واحدة جاءت على وزن البحر البسيط.

■ اللغة:

نستطيع أن نقول إن اللغة عنده أداة توصيل، لا صلة لها بالفن الشعري سوى صلة الفن، ويكاد الشعر يصل إلى درجة النثر، فالقصيدة أو المقطوعة عنده نظم جاف لا يحمل شعورا أو يعبر عن احساس عميق، وربما التمسنا شيئا فيها في مدحه لشملان أو رثائه له ولشيخه الدحيان، أما بعد ذلك فإننا لا نجد في اللغة عنده ما نبتغيه عند الشعراء من متعة ذهنية أو لذة فنية، فاللغة لم توظف فنيا ولعل السبب في ذلك أنه لم يقصد من وراء كتابته للشعر سوى أن يؤدي رسالة وينبه إلى أمر، وهو ما حملته أشعاره، فالألفاظ عادية لم تستخدم غير الغرض الذي وضعت من أجله، والمعاني لا عمق فيها فهي تقدم

المعنى الذي يفهمه العامي فيها، وتميل لغته إلى الشعبية أكثر منها إلى الفصحى المستخدمة في الغرض الفني.

ثمة ما يدعوني إلى القول: إن هذا الضعف الظاهر في لغة الشعر عنده أنه انقطع عن مطالعة الشعر زمنا وانقطع كذلك عن نظمه وربما لتفرق شمل النادي الأدبي وابتعاد أعضائه واختفاء إنتاجهم إضافة إلى انشغاله بأموره التجارية، مما أضعف لغته وتسبب في كثير من الأحيان في اختلال الأوزان.

ولعلي أنبه إلى نقطة مهمة هنا وهي أن الأخطاء الواردة في أشعاره في الملتقطات سببها طباعي في كثير من الأحيان وقلة المراجعة، والداعي إلى هذه الملاحظة أن هذه الأخطاء تتفشى في صفحات الكتاب من أول جزء حتى آخر جزء.

V - اختياراته الشعرية

يعد كتاب الملتقطات دليلا واضحا على ثقافة الشيخ يوسف بن عيسى القناعي الأدبية، وكثرة قراءته للشعر العربي في عصوره المختلفة، وقد استشهد لنيف وثمانين شاعرا من شعراء الفصحى، ولعدد آخر من شعراء النبط، وتكررت اختياراته لبعض الشعراء في نصوص مختلفة.

ونستطيع أن نحدد المجالات التي ركز عليها عند اختياره للشعر، فقد تنوعت بين الحكمة والغزل والعلم والإسلاميات والطرائف.

■ **الحكمة:**

وهذه الأشعار التي انتخبها من شتى الدواوين ومن عصور متفرقة هدف منها إلى التماس العظة والعبرة وبث الفضائل والأخلاق الصالحة بين الناس ويجعل لكل فقرة مختارة عنوانا، ويخص هذا النوع بعنوان مشترك هو «حكم من الشعر العربي». فمن ذلك ما ذكره من شعر المثقب العبدي [٧٠]:

لا تقولن إذا لم ترد
أن تتم الوعد في شيء: نعم
حسن قول نعم من بعد لا
وقبيح قول لا من بعد نعم
أكرم الجار وارعَ [٧١] حقه
إن عرفان الفتى الحق كرم
إن شر الناس من يمدحني
حين يلقاني وإن غبت شتم

وحكمة أخرى يلتقطها للقاضي الجرجاني من قوله [٧٢]:

شاور سواك إذانابتك نائبة
يوما وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تبصر منها ما نأى ودنا
ولا ترى نفسها إلا بمرآة

ويختار لبشار بن برد في المشورة قوله[٧٣]:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فريش الخوافي قوة للقوادم

وللمتنبي نصيب وافر من ملتقطاته، فهو شاعر الحكمة عنده، وكذلك المعري، ومن شعر المتنبي ما يجعله تحت اسم «حكم من الشعر العربي»، ومنه ما يسميه «الأمثال»، وهو اختيار بيت مفرد.

ومن الأول قوله:

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا
وأعيا دواء الموت كل طبيب
سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها
منعنا بها من جيئة وذهوب

وكذلك قوله:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد
وكل يرى طرق الشجاعة والندى
ولكن طبع النفس للنفس غالب [٧٤]

وقد نجد عنده تعليقا على بيت من الشعر، كما في قول ابن دريد [٧٥]:

من ظلم الناس تحاموا ظلمه
وعز عنهم جانباه واحتمى

يقول: قد يكون كلامه هذا في بلاد الاستبداد عند ضعف سلطة الحاكم، أما في البلاد الدستورية والجمهورية، فإنه إذا ظلم الناس أحد رفعوا أمره إلى الحكومة فانتقمت منه.

ولو تتبعنا مختاراته لطال بنا التتبع، فهذا النوع من الشعر يدور على ألسنة الكثيرين ويقع في اختيار المتذوقين، ويلتمسه الوعاظ والدعاة، ويكثر مع إيراده جامعو المختارات الشعرية.

ولعل مما تكرر عند الاستشهاد به من الشعر ما دار على ألسنة النحاة وما تباروا به في ميادين التورية والأحاجي، ودخل في كتب الفقه أحيانا، ومن نماذج هذا الشعر ما يروى من قول أبي الفضل النحوي قوله:

أصبحت فيمن لهم دين بلا أدب
ومن لهم أدب عار من الدين
أصبحت فيهم غريب الشكل منفردا
كبيت حسان في ديوان سحنون

ويعلق شارحا:

والمراد بيت حسان هو قوله:

وهان على سراة بني لؤي
حريق بالبويرة مستطير

وسحنون هو صاحب المدونة لمذهب مالك [٧٦].

■ الغزل:

ليس غريبا أن ينتقي الشيخ شعرا غزلا، فقد وجدنا أن من سبقه من الفقهاء قد تمثلوا بشعر

الغزل كثيرا وأوردوه في مؤلفاتهم واستشهدوا به، وقد نظموا فيه حتى ليظن القارئ لأول وهلة أنها لشاعر من شعراء العشق المشهورين.

والشيخ يوسف القناعي، بانتخابه لهذه الطائفة من شعر الغزل، يصدر عن ذوق أدبي رفيع، وحسن اختيار بديع، فمن ذلك قول ابن الدمينة[٧٧]:

قفي يا أميم القلب نقضي لبانة
ونشكو الهوى ثم افعلي ما بدا لك
لئن ساءني أن نلتني بمساءة
فقد سرني أني خطرت ببالك
أرى الناس يرجون الربيع وإن نمى
ربيعي الذي أرجو نوال وصالك
أبيني أفي يمنى يديك جعلتني؟
فأفرح أم صيرتني في شمالك؟
تعاللت كي أشكو وما بك علة
تريدين قتلي؟ قد ظفرت بذلك

ويختار من رائعة عروة بن حزام أشهر أبياتها عند قوله:

جعلت لعراف اليمامة حكمه
وعراف نجد إن هما شفياني
وما تركا من رقية يعلمانها
ولا سلوة إلا بها سقياني
فقالا شفاك الله، والله ما لنا
بما حملت منك الضلوع يدان [٧٨]

ويطوف شيخنا في عصور الأدب ويستقري الدواوين فتستوقفه أبيات مهيار الديلمي، وحق له أن يقف عندها، ونحن نقف عندها معه نستروح ما

أحسه مهيار في قوله:

يا نسيم الصبح من «كاظمة»
شد ما هجت الجوى والبرحا
الصبا - إن كان لا بد الصبا -
إنها كانت لقلبي أروحا
يا ندامــاي «بسلع» هل أرى
ذلك المغبق والمصطبحا
فاذكرونا مثل ذكرانا لكم
رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى لكم
شرب الدمع وعاف القدحا [٧٩]

■ **اللطائف والطرائف:**

وهما عنوانان أكثر من ذكرهما في ملتقطاته، ولم ينسب ما اختار لقائل ومن مثله:

يا من حوى ورد الرياض بخده
وحكى قضيب الخيزران بقده
دع عنك ذا السيف الذي جردته
عيناك أمضى من مضارب حده
كل السيوف قواطع إن جردت
وسهام لحظك قاطع في غمده
إن شئت تقتلني فأنت محكم
من ذا يطالب سيدا في عبده؟ [٨٠]

وكذلك:

رأيت ظبيا على كثيب
كأنه البدر قد تلالا
فقلت ما الاسم قال: لولو
فقلت: ليلى، قال: لالا [٨١]

ومن اللطائف قول الحطيئة:

لكل جديد لذة غير أنني
وجدت جديد الموت غير لذيذ
له خبطة في الحلق ليس بسكر
ولا طعم راح يشتهي ونبيذ[٨٢]

ولطيفة غير منسوبة:

ياذا الذي أطعمني
في بيته سبع لقم
ورام أخذ جبتي
هذا على الرطل بكم؟ [٨٣]

ومن اللطائف قوله:

وشادن قلت له ما اسمكا
فقال باللثغة عباث
فصرت من لثغته ألثغا
فقلت: أين الكاث والطاث[٨٤]

ويلتقط من أبيات محمد مصطفى حمام هذه الأبيات:

لي وللناس في الربيع معان
ولنا في الربيع أحلى الأماني
فربيع الحياة عصر التصابي
وشباب الأرواح والأبدان
وربيع الجيوب إحراز مال
وامتلاء بالأصفر الرنان
وربيع الموظفين علاوا
ت ورزق يأتي بغير أوان
وربيع الأديب لقيا عروس
زفها الشعر من عذارى المعاني

كم لهـــذا الربيع فلســـفـــة تحـ
ـــلــو وكــم لــلـــربـيـــع مــن ألـــوان[٨٥]

■ **العلم:**

قضى الشيخ يوسف حياته بين تعلم وتعليم، وما انفك يطالع كتابا أو يحاور زائرا أو يكاتب عالما، وكان مجلسه إلى آخر حياته موئلا لطلاب العلم، وقد أتاح لرواد مجلسه ذلك ما يتمتع به من سماحة وسعة صدر وتقبل لكل ما يطرح ويقال.

وليس بعد ذلك من عجب أن أمتلأت صفحات كتابه «الملتقطات» بالحديث عن العلم الديني والعلم الدنيوي، وما حفلت به هذه الصفحات من نقول من كتب التراث ومن كتب المحدثين ومن المجلات والجرائد، نثرا وشعرا.

وحديثه عن فضل العلم يتكرر في صفحات عدة، فتحت عنوان «فضل الاشتغال بالعلم» يقول:

«إن الاشتغال بالعلم أفضل من نفل الصلاة والصيام وغيرهما من أعمال النفل القاصرة على الفاعل ولم تتعد لغيره، ورد في ذلك، آيات وأحاديث كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ ومن الأحاديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» وقوله: «مجلس علم خير من عبادة ستين سنة»[٨٦].

ثم يعود للحديث عن العلم وفضله ويتحدث عن معناه اللغوي ثم يقف عند آية «وقل رب زدني علما» ويوجه سؤالا يقول فيه: «هل المقصود بالعلم في الآية علم الدين فقط أو أن العلم إذا كان هو المعرفة بالشيء فهو يشمل جميع العلوم وإن كان علم الدين

أشرفها وأعلاها؟ ثم يجيب عن سؤاله بقوله: «الدليل على أن العلم يشمل جميع العلوم قول يوسف عليه السلام: «قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم». أي حفيظ لما جعلته بيدي من الخزائن، فلا أصرفها إلا في مصرفها، وعليم بالجمع والتوزيع، فهذا هو علم الاقتصاد [87] . وهذا الكلام منقول بتصرف من كلام الكاتب عبدالله القصيمي، وقد أورد كلامه في صفحة (٨٤) من الملتقطات تحت عنوان «العلم والجهل».

وتمر بنا بعد ذلك جملة من اختياراته فنلاحظ عنوانات من مثل «التسامح في العلم والتعليم، أشهر الصحابة في العلم، من الاصطلاحات الجديدة في العلوم، وأمور يجهلها العلم» وغير ذلك.

ومن اختياراته الشعرية نراه يذكر شعرا للإمام الشافعي حيث يقول [88]:

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي
ولا أنثر الدر النفيس على الغنم
لأن يسر الله الكريم بفضله
وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بثثت مفيدا واستفدت ودادهم
وإلا فمخزون لدي ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه
ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وللقاضي الجرجاني في العلم قوله [89]:

ولم أقض حق العلم إن كان كلما
بدا شبح صيرته لي سلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو عظموه في النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا

محياه بالأطماع حتى تجهما

والكتاب حافل بعد ذلك بأشعار مختلفة المشارب، فمن شعر في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن شعر في الذات الإلهية كما هو عند الصوفية أمثال ابن الفارض، إلى مدائح الملوك والوجهاء والعلماء، انتقاها المؤلف بعناية وقدمها لقرائه تنمية للذوق، وتفريجا للهموم، وترويحا للنفس.

وفي كتابه «الملتقطات» ما يشير إلى اطلاعه الواسع على كتب الأدب ودواوين الشعر القديم والحديث، فمن العصر الجاهلي يلتقط أبياتا للمثقب العبدي وقيس بن الخطيم وابن الدمينة، ثم يعرج على عصر صدر الإسلام فينقل شعراً لحسان بن ثابت وأبي الأسود والإمام علي بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة وغيرهم، ومثل ذلك في عصر بني أمية، ويحظى العصر العباسي بنصيب وافر من ملتقطاته، ومن العصر الحديث يذكر أحمد شوقي وحافظا والزهاوي والرصافي والشيخ عبدالله بن عبدالقادر وما إليهم.

وتشيع في ملتقطاته نماذج من شعر النبط، ويبدو من خلالها تذوقه لهذه الأشعار التي يكثر من إيرادها، من مثل شعر عبدالله الفرج والملا حمد العسعوسي وحميدان الشاعر وابن لعبون وراكان بن حثلين وسواهم.

كما يورد أشعارا غير منسوبة لأصحابها، وأغلب ذلك في باب اللطائف، ولا تفوتنا الإشارة إلى

اختياراته النثرية التي قرأها عند المنفلوطي وعباس العقاد وعبدالله القصيمي وسيد قطب ومحمد الغزالي.

واهتمامه بالنحو جعله يقدم للقراء ملخصا لكتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء بتحقيق الدكتور شوقي ضيف عند صدوره، مشيدا بالكتاب وداعيا إلى اقتنائه والعكوف على قراءته.

الهوامش

1. الشيخ يوسف بن عيسى القناعي: د. نجاة عبدالقادر الجاسم (شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع) - الكويت، ص١١، نقلا عن مقالة لسيف مرزوق الشملان بمجلة مرآة الأمة ١٩٧٣/٧/١٢.
2. المصدر السابق ص١١.
3. المصدر السابق ص١١.
4. المصدر السابق ص١١.
5. المصدر السابق ص١١.
6. المصدر السابق ص١٣.
7. الملتقطات: الشيخ يوسف بن عيسى القناعي ـ ط وزارة الإرشاد والأنباء/ الكويت سنة ١٣٦٧ هـ (١٠٣/١).
8. علماء الكويت وأعلامها: عدنان سالم الرومي - مكتبة المنار الإسلامية - الكويت ط١- ١٩٩٩م - ص ٤٦٧.
9. الشيخ يوسف القناعي: د. نجاة الجاسم - ص ٢٧.
10. تاريخ الكويت: عبدالعزيز الرشيد - مكتبة دار الحياة - بيروت - ١٩٧٠م (ص٣٧٤).
11. قصة التعليم في الكويت / عبدالله النوري - مطبعة الاستقامة - القاهرة، ص٧٥.
12. من هنا بدأت الكويت: عبدالله خالد الحاتم - المطبعة العمومية - دمشق - ط١ - ص ٢٢٩ - ٢٣٠، تاريخ الكويت: عبدالعزيز الرشيد، ص ٣٧٨.
13. من تاريخ الكويت: سيف مرزوق الشملان - مطبعة نهضة مصر - القاهرة - ط١ - ١٩٥٩، ص ١٩٩، راشد الفرحان: مختصر تاريخ الكويت - مكتبة العروبة - القاهرة - ط١ ١٩٦٠ ص ٩٣ - عبدالله الحاتم: ٢٤٣ (الملتقطات جـ١/١٢٠).
14. د. نجاة الجاسم: (٧٥ - ٧٧).
15. د. نجاة الجاسم: (٤٥ - ٤٦).
16. د. نجاة الجاسم (١٠٤).

17 يوسف بن عيسى القناعي: د. نجاة الجاسم – ص ١٦.
18 المرجع السابق: ١٨.
19 عبدالعزيز الرشيد: تاريخ الكويت، ص ٢٧٢.
20 عبدالعزيز الرشيد: تاريخ الكويت، ص ٤٢٦ – ٣٢٧، وانظر: خالد سعود الزيد: أدباء الكويت في قرنين، ٤٨/١.
21 فاضل خلف: دراسات كويتية، ط١، ص ١٢١.
يقول صقر الشبيب في رسالته إلى المؤلف: إن ما نشر لي في تاريخ الكويت وقبله أكثره ضعيف، لأنني نظمته صغيرا، فأرجو ألا تكثر من إيراده.
22 ديوان صقر الشبيب: جمع وتقديم أحمد البشر الرومي، مكتبة الأمل، الكويت، ص١٩.
23 عبدالعزيز الرشيد: تاريخ الكويت، ص ٣٨١.
24 ديوان صقر الشبيب، ص ٤٥.
25 ديوان صقر الشبيب، ص ٦٩.
26 ديوان صقر الشبيب، ص ١١٥ – ١١٦.
27 ديوان صقر الشبيب، ص ٣٨٤، والشكال: حبل تشد به قوائم.
28 ديوان الشبيب، ص ٣٩٩.
29 ديوان الشبيب، ص٤٢٥.
30 الشيخ يوسف بن عيسى القناعي: د. نجاة الجاسم – ص ١٠٤
31 الملتقطات: ص ١٠٣
32 الملتقطات: ص ٤٤
33 الملتقطات: ص ٤٤
34 الملتقطات: ص ٢٦٩
35 الملتقطات: ص ٣١١
36 علماء الكويت وأعلامها – عدنان بن سالم الرومي – ص ٤٨١.
37 الملتقطات:٣٩٧
38 الملتقطات

39 الملتقطات:: ٣٥٢

40 علماء الكويت وأعلامها: ٤٨٤

41 الملتقطات: ٣٥٣

42 الملتقطات

43 الملتقطات: ٣٩١ - ٣٩٢

44 الملتقطات: ٣٩٢

45 الملتقطات: ٢٥٧

46 الملتقطات: ٣٥٣

47 الملتقطات: ٣٩١ ولعل الأقرب إلى قراءة البيت الأول: هنيئا للذي ولدته أم، لأنه أراد الحديث عن بر الأم.

48 الملتقطات: ٣٥٣

49 الملتقطات: ٣٦١ - ٣٦٢

50 تاريخ الكويت: عبدالعزيز الرشيد. ص٣٧٢ - ٣٧٣.

51 المصدر السابق: ٣٧٥ - ٣٧٦.

52 الملتقطات: ٣٥٤

53 الملتقطات: ٣٨٣

54 الملتقطات: ٣٦٤

55 الملتقطات: ٣٨٣

56 دراسة كويتية - فاضل خلف - ص٣٩.

57 المصدر السابق: ص ٤٠

58 في الأصل: فالناس حولك في الممات كما هي في حياتك، والتصويب للأستاد فاضل خلف.

59 في الأصل: لا فرق بين الحالتين إلا سكوتك عن عظاتك، والتصويب للأستاذ فاضل خلف.

60 في الأصل: فصار حقا في نعاتك، والتصويب للأستاذ فاضل خلف.

61 في الأصل: يا راحلا نم في آمان، والتصويب للأستاذ فاضل خلف.

62 خالدون في تاريخ الكويت: عبدالله محمد النوري - ذات السلاسل - الكويت سنة ١٤٠٨ هـ. ص ٧٦ - ٧٨.

63 أدباء الكويت في قرنين: خالد سعود الزيد - ص ٢٢.

64 ديوان صقر الشبيب: ص ٥٢

65 الملتقطات: ٧٠ وعند الأستاذ فاضل خلف تبديل لبعض كلمات القصيدة كما هو وارد.
في البيت الرابع «بالقلب» بدل «في القلب».
وفي البيت السادس تغير الشطر الثاني إلى: «هانت لدي من الأرزاء أهوال».
وفي البيت التاسع تغير «بعدا ماله أمد» إلى: «ما لاقيت من كمد».
وفي البيت العاشر تغير «عساه يجبر قلبا» إلى: «عسى يجير شجيا».
وفي البيت الأخير تغير «بما قد قلت» إلى: «فيما قلت».
وتجدر الإشارة إلى سقوط البيت الثالث من القصيدة عند الأستاذ فاضل خلف.

66 من تاريخ الكويت: سيف مرزوق الشملان - ص ٩٠.

67 الملتقطات: ٣٥٢

68 أدب الفقهاء: عبدالله كنون- دار الكتاب اللبناني - بيروت ص ٢١٩.

69 ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري - مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٩٧١م ص ١٣٤.

70 الملتقطات:١٢

71 ورد البيت في الملتقطات: أكرم الجار وراع حقه، وصوابه كما أثبتناه: انظر ديوان المثقب العبدي. طبع معهد المخطوطات العربية - القاهرة - ١٩٧١ بتحقيق حسن كامل الصيرفي ص ٢٢٧ - ٢٢٩.

72 الملتقطات: ٢٦

73 الملتقطات: ٧٩

74 الملتقطات: ٨١

75 الملتقطات: ٢٦

76 الملتقطات: ٢١٩ وانظر: أدب الفقهاء لعبدالله كنون -

ط دار الكتاب اللبناني بيروت – ص ١٤، حيث يقول عن الشطر الأخير وبيانه أنه ورى بكتاب «المدونة» المعروف في الفقه المالكي وسماه ديوان سحنون لأن سحنون، الفقيه هو مؤلفه، و«المدونة» على كبرها ولأنها تقع في أربعة مجلدات ضخام ليس فيها شعر إلا بيت.

77 الملتقطات: ١٣

78 الملتقطات: ٦٤

79 الملتقطات: ٢١

80 الملتقطات: ٩٥ وفي ديوان مهيار الديلمي ص ٢٠٢و٢٠٣ «اذكرونا ذكرنا عهدكم»

81 الملتقطات: ١٦

82 الملتقطات: ١٥١

83 الملتقطات: ١٦٤

84 الملتقطات: ١٧٣

85 الملتقطات٠ ٨٩

86 الملتقطات: ٦٢

87 الملتقطات: ٤٩

88 الملتقطات: ٨٧

89 الملتقطات: ٣٦٤

المصادر والمراجع

١ – أدب الفقهاء: عبدالله كنون – دار الكتاب اللبناني – بيروت.

٢ – أدباء الكويت في قرنين: خالد سعود الزيد – المكتبة العصرية – الكويت – الطبعة الأولى ١٩٦٧.

٣ – تاريخ الكويت: عبدالعزيز الرشيد – منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٧١م.

٤ – خالدون في تاريخ الكويت: عبدالله النوري – ذات السلاسل – الكويت ١٤٠٨ هـ.

٥ – دراسات كويتية: فاضل خلف – الطبعة الأولى.

٦ – ديوان صقر الشبيب: جمع وتقديم: أحمد البشر الرومي وعبدالستار فراج – مكتبة الأمل الكويت.

٧ – ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري – مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة – ١٩٧١.

٨ – الشيخ يوسف بن عيسى القناعي: د. نجاة عبدالقادر الجاسم – شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع – الكويت.

٩ – علماء الكويت وأعلامها: عدنان بن سالم الرومي – مكتبة المنار الإسلامية – الكويت. الطبعة الأولى – ١٩٩٩.

١٠ – قصة التعليم في الكويت: عبدالله النوري– مطبعة الاستقامة – القاهرة.

١١ – مختصر تاريخ الكويت: راشد عبدالله الفرحان – مكتبة العروبة – القاهرة.

١٢ – الملتقطات: الشيخ يوسف بن عيسى القناعي – وزارة الإرشاد والأنباء (الإعلام حاليا) – الكويت ١٣٦٧ هـ.

ثانياً:

الشيخ يوسف بن عيسى القناعي

عالماً ومجدداً

بدر خالد البدر

الشيخ يوسف بن عيسى القناعي عالماً ومجدداً

بدر خالد البدر(*)

الشيخ يوسف علم من أعلام الكويت، الذي كرس حياته المديدة في البحث عن المعرفة فيما يتعلق بالدين والدنيا، فقد سافر في شبابه من أجل تحقيق هذه الأهداف إلى الأحساء والحجاز والبصرة ليواصل نشاطه الإصلاحي فيما بعد في بلده الكويت وخدمة أهلها، فقد ساهم في إنشاء المدرسة المباركية عام ١٩١١ - راجع الصفحة ٣٧ من كتاب «صفحات من تاريخ الكويت» الطبعة الرابعة - والمدرسة الأحمدية عام ١٩٢١ - راجع الصفحة ٢٢٨ من كتاب «الملتقطات»، وكذلك المجلس الاستشاري عام ١٩٢١ في عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح رحمه الله، إلى المكتبة الأهلية عام ١٩٢٣ وإلى النادي الأهلي عام ١٩٢٤ ثم البعثة العلمية في ذلك العام ـ راجع تاريخ الكويت ـ للشيخ عبدالعزيز الرشيد الصفحة ٢٣٨ حيث ضم أسماء أعضاء أول بعثة علمية كويتية للخارج حيث رافق الشيخ يوسف أعضاء البعثة إلى بغداد يطمئن على أمورهم وراحتهم.

يأتي بعدها سفره إلى البحرين عام ١٩٢٨ وعودته إلى الكويت حاملا فكرة إنشاء البلدية التي أنشئت

(*) شغل منصب سكرتير في دائرة معارف الكويت عام ١٩٥٤، ثم نقل في العام نفسه ليتولى ادارة الجريدة الرسمية التي تحولت عام ١٩٥٥ الى دائرة المطبوعات والنشر، وفي عام ١٩٦٢ تحولت الدوائر الى وزارات فكان اول وكيل لوزارة الارشاد والأنباء «الاعلام».

عام ١٩٢٩ - راجع كتاب الدكتورة نجاة عبدالقادر الجاسم - بلدية الكويت في خمسين عاما - ١٩٨٠ - وأخيرا وليس آخرا تولى الشيخ يوسف منصب نائب رئيس المجلس التشريعي عام ١٩٣٨.

إن بعض التفاصيل لهذه الجهود مدونة في كتب مثل صفحات من تاريخ الكويت أو في كتاب الملتقطات وكذلك في مجلة الكويت ١٩٢٨ - ١٩٣٠ وكتاب تاريخ الكويت للشيخ عبدالعزيز الرشيد الذي سماه مصلح الكويت حيث قال عنه في كتابه - تاريخ الكويت - الصفحة ٢٦١ «هذا الأستاذ الفاضل هو أحد أقطاب الحركة العلمية والفكرية في الكويت وأحد العاملين في كثير من المشاريع الخيرية بل هو في الحقيقة مصلح الكويت الفذ بما يبذله من مال في سبيل إصلاحها ويبذل كذلك من وقته النفيس ما يعادل بذله من المال، كل هذا قياما بحق الوطن المقدس» وقد ذكر الشيخ يوسف اسمه الكامل: يوسف بن عيسى بن محمد بن حسين بن سلمان بن علي بن محمد بن سري، وأرخ ما كتبه بتاريخ السابع عشر من ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ.

كذلك هنالك كتاب عن حياة الشيخ يوسف للدكتورة نجاة عبدالقادر الجاسم صدر عام ١٩٨٩ وفيه الكثير عن حياة هذا الرجل وما قدمه لبلاده من خدمات كانت في أمس الحاجة إليها منذ بداية القرن الماضي حتى وفاته رحمه الله في عام ١٩٧٣.

وهناك رابطة عائلية مع الشيخ يوسف حيث أن جدي سليمان البدر هو خاله. وقد بدأت معرفتي بالشيخ يوسف عن قرب في أواخر العشرينات عندما

كنت أتردد على ديوانه وأشاهد هناك مجموعة من الشباب الكويتي الذين كان بعضهم يأتي لتلقي دروس في الصرف والنحو وبعضهم في علوم الدين، وكنت أنا أحدهم وكان يوزع علينا كراسا من تأليفه اسمه «المذكرة الفقهية في الأخطاء الشرعية» المطبوع في بغداد، وكانت تلك اللقاءات تتم بعد الظهر قبل صلاة العصر وأحيانا في الصباح الباكر، وكان من رواد الديوانية البارزين الشيخ عبدالله السالم الصباح ولي العهد في ذلك الوقت رحمه الله، بالإضافة إلى الكثير من الشباب المتعطشين للمعرفة وكانت للشيخ يوسف مكتبة عامرة ملحقة بالديوانية، أما واسطة الجذب الأخرى إلى تلك الديوانية فكانت الصحف العربية على اختلاف أنواعها التي لم تكن متوافرة إلا عند القلة من الكويتيين بسبب صعوبة المواصلات في تلك الأيام وأهم تلك الصحف والمجلات كانت الصحف المصرية مثل الاهرام والمقطم والسياسة والكشكول ومن المجلات الهلال والمقتطف واللطائف المصورة.

ومن المعروف في ذلك الوقت أنه كان للكويتيين عدة محلات تجارية في الهند لا سيما مدينة بومبي وكانت هناك مكتبة عربية صاحبها شاب مصري وكانت تتم بعض الاشتراكات في الصحف والمجلات عن طريق تلك المكتبة حيث تأتي الصحف عن طريق البحر من مدينة بورسعيد عبر قناة السويس إلى بومبي وتأخذ حوالى أسبوع، ومن بومبي إلى الكويت بطريق البحر أيضا والمدة حوالى أسبوع وكانت الصحف المصرية في ذلك الوقت عامرة بآراء مشاهير الكتاب والسياسيين أمثال الدكتور طه حسين

ومحمد فريد وجدي ومحمد حسين هيكل والمحامي القبطي الشهير المنتمي الى حزب الوفد مكرم عبيد، وكان قسم كبير من الشباب الكويتي في تلك الأيام أدمن قراءة تلك الصحف والمجلات، وتحمس لمختلف الأحزاب لا سيما حزب الوفد، وللحق أقول إن التعبير في تلك الصحف كان بدرجة عالية من الحرية حتى أن مجلة الكشكول الهزلية كان يظهر فيها كثير من الصور الكاريكارتيرية الموجهة ضد الحكومة وحتى ضد الانتداب البريطاني في ذلك الوقت عن طريق تلك الرسوم الكاريكاتورية ذات المعاني السياسية الواضحة.

وفي عام ١٩٣٢ قمت بزيارة إلى الهند للدراسة فيها وأقمت هناك عاما كاملا وتعرفت إلى صاحب المكتبة العربية هناك وكنا نتردد على المكتبة مع بعض الشباب الكويتي المقيم مع أهله والبعض الاخر ممن هو قادم لزيارة قصيرة وقد اشتريت وقتها ستة مجلدات من مجلة المقتطف، التي كان لها وزن ثقافي وعلمي في تلك الأيام، بما كانت تتطرق إليه من أبحاث بعضها مترجم لعلماء كبار، ومن حسن الحظ مازلت أحتفظ بتلك المجلدات في مكتبتي.

وأعود إلى ديوانية الشيخ يوسف حيث تتحول أحيانا إلى محكمة لحل النزاع بين الخصوم الذين كانوا غالبا ما يخرجون راضين بحكم الشيخ، الذي كان يحرص على التفاهم والتسامح. أما طالبو عقود الزواج فليس لهم وقت معين فالأبواب مشرعة لهم سواء في الديوانية أو في المحل التجاري وأحيانا وقت استراحته داخل بيته وهو يقوم بكل هذا دون تذمر أو

ملل ابتغاء وجه الله. كل هذا على الرغم من توليه مهمة القضاء الرسمي في المحاكم في فترة من الوقت في حالة فراغ المنصب.

وكان الشيخ يوسف بطبيعته متسامحا بعيدا عن التعصب في نظرته الدينية مستشهدا بقوله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر» وفي بعض مقتبساته من كتاب «الملتقطات» أدلة كثيرة على ذلك، وكان اهتمامه بالأمور الدينية والاجتماعية أكثر من اهتمامه بالأمور التجارية التي تركها لإخوانه في مكتبهم في الهند أو في الكويت، لذلك فقد كان محله التجاري، كما ذكرت، ملتقى الزوار من أصدقائه ومن أصحاب الحاجات التي لها علاقة بأمور الدنيا والدين كما كان عليه في ديوانيته، كما كنت أشاهد من زواره في محله التجاري الكثير من أصدقائه ووجهاء البلد ومنهم على سبيل المثال لا الحصر صديقه الحميم شملان بن علي بن سيف الرومي والشيخ سعود بن محمد الصباح وتاجراللؤلؤ الثري المعروف هلال بن فجحان المطيري والسيد خلف النقيب وآخرين.

لقد كان الشيخ يوسف شاعرا مجيدا وله اشعار كثيرة قالها في مناسبات مختلفة لكنها لم تجمع في كتاب واحد، نشرت في عدة مراجع منها بعض كتبه مثل كتاب «المقتطفات» مجلة الكويت وتاريخ الكويت للشيخ عبدالعزيز الرشيد، وكانت له أشعار خفيفة تظهر فيها روح المرح وخفة الظل والدعابة البريئة ومن ذلك ما قاله في مدح مياه آبار منطقة حولي حيث اشتهرت تلك الآبار في وقت من الأوقات

بعذوبتها ثم تأثرت فيما بعد بكثرة النزيف وكما قال الشاعر: والمورد العذب كثير الزحام.

ويؤسفني ألا أتذكر إلا مطلع القصيدة التي يقول فيه:

مـــاء الحـــولي مـــثله مـــا دارا
من شـــربه قـــد تـاهت الأفكارا

وقال لي خالد بن يوسف المطوع إن عبدالله بن محمد الخليل القناعي قد رد عليه فيما بعد عندما تغيرت عذوبة مياه تلك الآبار حيث يقول:

يامادحـا ماء الحـولـي مـسـرفـا
هلا مـــدحت الشط والأنهـــارا
أهل الحـــولي عظم الله أجـــركم
مـــاء الحـــولي عندكم قـــد بارا
قـد كـان يهـدى للأكـابـر طرفــة
واليـــوم أضـــحى كـ «أبـي دواره»

وأبو دواره كانت بئرا مشهورة بمياهها العذبة ثم تغير ماؤها بسبب كثرة إقبال الناس عليه كما حدث لآبار حولي بعد ذلك، وتقع بئر أبي دواره على طريق عبدالله الأحمد بين قصر دسمان ومنطقة الأسواق والمسجد الكبير حيث هناك دوار اسمه دوار «أبو دواره».

وأنا أذكر أن ماء أبي دواره كان يباع بسعر أرخص من المياه العذبة ويسمى ماؤه «مروق» ولا يصلح للشرب بل يستعمل للحاجات المنزلية غير الشرب.

وأود أن أختم حديثي القصير هذا عن الشيخ يوسف ببعض ما جاء في مقدمة كتاب الدكتورة نجاة عبدالقادر الجاسم عن الشيخ يوسف الذي سبقت

الإشارة إليه، واعترف بأن ليس عندي أحسن مما قالته في حق هذا الرجل الكبير، الذي سبق عصره فيما قدمه من خدمة لبلاده ومجتمعه، تقول الدكتورة نجاة في مقدمة الكتاب:

«في ماضي الشعوب وحاضرها كثير من الشخصيات التاريخية التي حملت راية الإصلاح والتجديد والتطور، وفي الكويت توجد عدة نماذج لمثل تلك الشخصيات، كان أكثرها شهرة وفعالية الشيخ يوسف بن عيسى القناعي المصلح الاجتماعي الأول، رجل الدين والفقه، الذي كان عالما ومصلحا اجتماعيا مؤثرا ذائع الصيت، وكانت نشاطاته واعماله متصلة اتصالا مباشرا بمصالح المجتمع الكويتي بشكل خاص والعربي الإسلامي بشكل عام، فلم يكن نفعها مقتصرا على الجيل الماضي فحسب وإنما على الجيلين الحاضر والمستقبل، كان يحكّم الدين والعقل والمنطق في مواقفه، كان الأساس والمهم بالنسبة له هو الالتزام بالصدق والعدل والثبات على المبدأ.

لقد أمضى عمره منذ نعومة أظفاره منكبا على العلم والمطالعة خاصة في شؤون الدين الإسلامي وبرز علما من أعلام الكويت وحفلت حياته بالأحداث التي شهدتها الكويت، وقام خلالها بدور رئيس ومؤثر، لقد دأب على إعلان الرأى الذي كان يعتقد أنه الصواب، رضي الآخرون أم لم يرضوا، كان حر الضمير قولا وفعلا يزن كل كلمة تصدر عنه بميزان دقيق»

ثالثاً:

الشيخ يوسف بن عيسى القناعي

موقفه من الديموقراطية وتعليم المرأة

فاطمة حسين العيسى

الشيخ يوسف بن عيسى القناعي
موقفه من الديموقراطية وتعليم المرأة

فاطمة حسين العيسى [*]

قبل البدء بالدخول في بعض دهاليز حياة العم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي، لا بد لي من الاعتراف باقتناعي بأن ما قدمته د. نجاة عبدالقادر الجاسم في كتابها «الشيخ يوسف بن عيسى القناعي - دوره في الحياة الاجتماعية والسياسية في الكويت»، إنما يعد بيت القصيد في حكاية هذا الرجل العظيم.

وهو - أي الكتاب - يمكن أن يكون خلاصة لكل المساهمات الطيبة التي قدمها عدد آخر من المهتمين بتاريخ الكويت، وما استطاع أي منهم أن يتجاوز الشيخ يوسف أو يتجاهله، فهو من العلامات الواضحة في حياة الكويت من حيث تطورها التاريخي على المستوى الديني والاجتماعي والسياسي والتربوي، أي تطورها الحضاري.

وهأنذا ألبي الدعوة الكريمة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب لكي أقول قولا في هذا العلم من وحي تجربتي الشخصية أو انطباعي الشخصي عنه أو تأثري به، بصفتي ابنة أخ شقيق له، شاءت

(*) عملت في دائرة الصحافة والثقافة ثم الإدارة السياسية بوزارة الخارجية قدمت برامج إذاعية وتلفزيونية تهتم بالمرأة وشؤون الأسرة. وفي ديسمبر ١٩٩١ تسلمت إدارة تحرير صحيفة «الوطن»، كما أسست مجلة «سمرة» ورأست تحريرها صدر لها عدة مؤلفات منها: «نقطة» و«أوراقي».

الظروف أن يطلب منه ترك البلاد هجرة إلى الهند في عام ١٩١٤، وذلك لفتح مكتب تجاري هناك باسم الأعمام، مما جعل - الشيخ يوسف - يتولى رعاية عائلته حيث اصبحت أحد أفراد تلك الأسرة الصغيرة التي عاشت بعناية الخالق ورعاية العم.

أصل هنا، وفي هذا الموقع، إلى اعتراف آخر، هو أنني - وبهذه الدعوة - وجدتني في موقع لا أحسد عليه، قبلته، نعم ولكن لم أقبله رضى بالقبول؛ لأنني فعلا أشعر بالعجز تجاه هذه المسؤولية، ولكنني قبلته رفضا للرفض ذلك لأنه موقع بالغ الدقة، لا يحتمل مني ميلا.

نعم ... هو عمي وشقيق والدي - يرحمهما الله - هو ذاك الشيخ الجليل الذي ما رأيته إلا شيخا يتوكأ على عصاه تتطابق صورته في خيالي - صغيرة - مع صور الرسل والأنبياء عليهم السلام، يرتدي ملابس بسيطة عادية ترتفع عن أقدامه قليلا لتسمح له بالحركة المتثاقلة، إن جلس فهو جالس على حافة سريره أو متربع ما بين كتب الفقه، وإن تحرك فهو وسط كوكبة من الأهل والصحب، يسعده منها تحلق الصغار حوله يجادلهم في مطالبهم التي لا تنتهي. كان يحتفظ في غرفته بدولاب محفور في الحائط - كما أذكر - يمثل لنا نحن الصغار مخزنا للأسرار، الذي نجري خلفه للاستمتاع بما يمكن أن يخرج منه. قربت منه يوما أطلب قلم رصاص بديلا عن قلمي الذي أوشك على التلاشي، وكان لي من سنوات عمري ست وربما سبع، فطلب مني أن يرى القلم الذي استخدمته، وهذا، كان شرطه دوما ... لا بد من

أن يرى القديم ليعطينا الجديد. وهكذا كان، سحبت القلم القديم من جيبي، أخذه بين أصابعه ونظر فيه ثم نظر إلي وقال: «فيه أيضا صفحة أو صفحتان عودي به ثم ائتيني به عندما يوشك أن يتلاشى»، فأستوقفه وأحاول أمامه أن أمسك بالقلم ما بين أصابعي الصغيرة لأريه - عمليا - بأنه قد أصبح من القصر إلى درجة رفضه أن يجلس ما بين أصابعي، فيضحك ويضحك ويتحرك باتجاه الدولاب السحري ويعطيني قلما جديدا وهو يلتفت باتجاه «الزايرة» قائلا:

- بس لو ما كانت بنت حسين!

«الزايرة» أو «الزائرة» - عربيا، وهي زوجته الثانية تزوجها بعد أن خسر زوجته الأولى بالوفاة، وهو اسم أطلقه عليها بعد أدائها لفريضة الحج وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مسجده بالمدينة المنورة.

لقد أنجبت له الزوجة الأولى ابنة واحدة هي «شيخة»، وهي والدة أبناء «مساعد الصالح المطوع»، لكن «الزايرة» أنجبت له من الأبناء سبعة وابنة واحدة. وقد كان رحمه الله ميالا إلى البنات ومميزا لهن على الأولاد، وكان يعلن هذا جهارا حتى أنه تزوج ثالثة، وفي سن تعتبر متقدمة قياسا بعمرها - هي والدة المحامي الكبير حمد الشيخ يوسف - ولكنها ما إن أنجبت له «عزة» حتى أعادت له البهجة التي يختزنها في صدره للبنات، وكان يسميها «المدللة»، وما لبث أن أهدته أخوات لها كن سلوى استراحته أيام شيخوخته.

ولم يكن ذلك مستغربا، فالحب والسلوى لا

يستمران إن لم يكونا متبادلين. فمثل حبه للأطفال كان حبهم له، فقد كان مغرما بالهبوط إلى مستواهم والعبث معهم بمثل ما يعبثون به، ويرى في ذلك سعادة حقيقية، فتجدهم ينتظرونه دوما بعد صلاة العشاء ليروي لهم قصة قبل المنام (حزاية) في الغالب تكون خيالية، ولكن عندما تكون القصة حقيقية كان يستدعي الكبار لسماعها.

لكن سلواه الحقيقية كانت القراءة المثمرة، وما أن ضعف بصره حتى جيء له بمصحف ذي خط واضح كبير الحروف كان رفيقه الدائم تماما مثل رفقة «ألفية ابن مالك» التي كان يستحضر قواعدها دوما بمتابعة ابنته مي ... هذه المي سمعها يوما تتأفف مللا، فاستغرب وقال لها: كيف يمكن لإنسان أن يشعر بالملل وفي الحياة كتاب؟ ثم أطلق حسرة حرى على ضعف بصره الذي حدد له مساحة قراءته.

ولا يمكن لأي منا، ممن عاش طفولته في كنفه أن ينسى له حبه للفكاهة والمزاح الذي لازمه طوال حياته عبر التعليقات ونظم الأبيات لإضحاك الآخرين، ولم أنج أنا شخصيا من ذلك، فلأنني كنت ممتلئة الجسم - طفلة - كان يغني لي كلما رآني:

فطومة يالمتينة
تقلقصت بالطينة
فطومة راس العومة
خشمها كبر الثومة

هذه السخرية تجري على لسانه دوما، في الوقت الذي يتفطر قلبه حبا وشفقة وعاطفة جياشة، دمعه كان يسيل من دون استئذان إذا سمع أحدا ينادي أمه

يقول «يمه» فقد كان يفتقد أمه كثيرا... أما أخوه محمد، الذي غرق في رحلة سفر - سوف نأتي على ذكره لاحقا - فلم ينسه طوال عمره حتى أنه أسمى أحد أبنائه «محمد»، ولما شاء أن يغادر إلى الولايات المتحدة لإكمال دراسته كتب له قصيدة حزينة، تذكر ابنته مي بعضًا منها:

يا قطعة من فؤادي رحلت في البعد عني

فكيف تهنأ روحي وجزؤها غاب عني

لا أدري إن كان الشيخ يوسف مناضلا بطبعه، أو أن الظروف قد فرضت عليه النضال على المستويين العائلي والاجتماعي. والنضال كما أفهمه هو حمل للمسؤولية. وقد حملها رحمه الله منذ صغره منذ أن أخذه والده وهو ابن اثني عشر عاما للسفر على متن السفينة «البغلة»، وكان اسمها «شط الفرات» باتجاه اليمن والهند ليتعلم أصول المتاجرة، وما هي إلا سنوات قليلة حتى غرقت السفينة عام ١٨٨٩ ما بين زنجبار ومسقط، وفقد أخاه الأكبر «محمد» في تلك الكارثة، وظل يبكيه ويجري دمعه عند ذكراه، حتى آخر أيامه.

وما هي إلا سنوات أربع حتى فقد والده، وأصبح على الصبي الصغير أن يواجه العالم بمفرده، ويرعى إخوته الصغار وعوائلهم فيما بعد. وما هي إلا سنوات أيضا حتى أرسل أخاه حسين إلى بومباي في الهند، وأحمد إلى رانجون في بورما للمتاجرة بالمواد الغذائية، وسليمان إلى البحرين من أجل اللؤلؤ، وتعهد

رعاية أسرهم في الكويت، هذا من أجل استعادة اليسر الذي اعتاد عليه - على رغم انكسار والده وإفلاسه.

وهكذا اختار الشيخ أن يعيش على الكفاف، ولا يوفر لعائلته إلا الحد الأدنى من المتطلبات وفق مبدئه الحياتي الذي يجسّده تلميحا وتصريحا «المحتاج أحق»، ولكنه ما بخل أبدا في عطائه للغير من وقته واهتمامه وعلمه، فقد كان وفيا وفاء نادرا لأصدقائه، ويؤدي واجب الزيارات المستمرة لأهله وصحبه، خاصة لأخواته الثلاث اللاتي لم ينقطع عنهن إلا عندما تدخل القدر في انفصاله عنهن.

شخصيا، أشعر أحيانا أن حبه لبناته وعطفه على أخواته وميله إلى الضعيف مالا وعلما ليعطي مما أعطاه الله بإغداق عجيب، قد انعكس على مواقفه من القضايا الاجتماعية، فكانت محاولته الجادة واجتهاده الدائم في إعطاء كل ذي حق حقه دينيا وعلميا وفقهيا، فكان الضعيف يتجه إليه طالبا إنصافه، فيستخرج له من عميق علمه بالدين الإسلامي الحنيف الذي جاء منصفا ومبشرا لحياة أفضل للبشرية جمعاء، يستخرج له ما ييسر حياته بعد العسر.

لقد جاء هذا الشيخ في عصر عزَّ فيه العلم في الكويت، وكان من القلة القليلة التي حفظت القرآن في سن مبكرة، ثم درس الخط والحساب والفقه والأدب والنحو، وما أن ترك الشيخ عبدالوهاب يوسف الرفاعي حتى تتلمذ على يد الشيخ الشافعي (عبدالله بن خالد العدساني) ثم الشيخ الحنبلي

(عـبـدالله بن خلف الدحـيـان)، ولم يأخـذ الأول - عبدالوهاب يوسف الرفاعي - منه مقابل تعليمه؛ لأنه كان ينيبه أحيانا في إعطاء الدروس لأقرانه.

هذا التنوع في الاتجاهات الثقافية التي تلقاها، جعله لا يقبل ما يطرح عليه إلا بعد تمحيص وتدقيق، وقد عُرف بكثرة أسئلته واستفساراته مما جعل الدين عنده - كما تقول د. نجاة عبدالقادر - يقوم على أساس من البحث والمنطق والاقتناع، الأمر الذي فرض عليه السفر إلى الأحساء والبصرة للاستزادة، ثم إلى مكة المكرمة التي كانت تزخر حينها بعلماء الدين واللغة والتوحيد والتاريخ.

عاد إلى الوطن وفي ذهنه قول الحق جل وعلا «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» وقول الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) «مجلس علم خير من عبادة ستين سنة» وقوله: «فضل العالم على العابد كفضلي على آدناكم»، ولأن مزاولة التجارة كانت واجبا عليه تجاه أسرته، فقد فتح مدرسته الأولى في «دكانه» والثانية في ديوانه في البيت، وكانت مدارس دينية بسمات دنيوية، لذلك يعتبره المؤرخ الشيخ عبدالعزيز الرشيد في مؤلفه «تاريخ الكويت» أول من أسس مدرسة على هذا النمط الذي جمع ما بين العلم الديني والعلم الدنيوي، فقد كانت مدارسه (باعتبار الموقعين الدكان والديوانية) تأخذ صفة المنتدى الفكري، إذ كانت تسخّر عمق العلم بالدين من أجل الدعوة إلى التطوير والتجديد ونبذ البدع والخرافات، مما يستظل بظل العادات والتقاليد، فيزحف أحيانا على الدين لتشويه صورته.

كان من بين تلاميذه الشيخ سالم المبارك الصباح حاكم الكويت (١٩١٧ - ١٩٢١)، ثم ابنه والصديق الصدوق لشيخنا الجليل الشيخ عبدالله السالم حاكم الكويت (١٩٥٠ - ١٩٦٥).

لقد توَّج نشاطه الإصلاحي باقتراح تأسيس المدرسة المباركية أول مدرسة نظامية في الكويت، وكان أول المتبرعين لها بالقليل من الروبيات التي كان يملك، بالإضافة إلى جهده ووقته في الإدارة والتدريس فيها. فقد كان همه أن ينقل الكويت إلى الحداثة في الدين والدنيا متأثرا بالمجددين، خاصة الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ولم يجد سبيلا إلى ذلك سوى المدرسة النظامية فسعى إليها، وما أن طاف بين تجار الكويت جامعا المال من أجل تلك المدرسة الجديدة، حتى فوجئ بذلك التجاوب الإيجابي، وتكفل هو بالرد على المتسائلين والمشككين والمعترضين ممن كانت لهم مصالح ذاتية في تلك الكتاتيب المنتشرة في البلاد، التي تصور أصحابها أن في هذه المدرسة قطعا لأرزاقهم. وهكذا خرجت المدرسة المباركية إلى النور ١٩١٢، وقد كانت مدرسة للبنين فقط. في حين ظلت الفتاة تذهب إلى «المطوّعات» أو الكتاتيب، ولكنها أصبحت تتعلم مبادئ القراءة والحساب إلى جانب تلاوة القرآن وحفظه.

وما هي إلا سنوات قليلة حتى تخلى الشيخ يوسف لغيره عن إدارة المدرسة، وتفرغ هو للوعظ الديني والثقافي في ديوانه الذي يبدؤه يوميا بجلسة صباحية بعد صلاة الصبح، يتحلق حوله القوم من جميع الأعمار، يستمعون له ويناقشونه ويسألونه في شؤون

دينهم ودنياهم، ثم جلسة أخرى ما بين صلاتي الظهر والعصر، وجلسة ثالثة ما بين صلاتي المغرب والعشاء، ثم يخلد إلى الراحة وينام بعد صلاة العشاء مباشرة.

قد يقول قائل وما الفرق بين تلك الجلسات الخاصة المقامة في ديوانه وتلك التي يلقيها في مواقع الكتاتيب المختلفة، وهي الجلسات التي تأخذ البيوت الخاصة منها موقعا؟ والفرق - كما يبدو واضحا - يكمن في المنهاج أولا، إذ بدلا من تلاوة وتحفيظ القرآن وبعض مبادئ الخط واللغة، تعدى الأمر لديه إلى الثقافة الدينية والدنيوية بالاستفهام والاطلاع، والعودة إلى المراجع المحيطة بالداعية وتلاميذه وجو النقاش المستمر والمساجلة والمداولة والحوار، مما يجعل التعلم جذابا ومثمرا.

وماذا بقي من نهاره؟ أتساءل اليوم فأقول إنما هي سويعات الوجبات - ربما - وزياراته المستمرة لصحبه في طريقه ساعة الضحى باتجاه دكانه، إذ كانت عادته أن يتوقف عند دكاكين صحبه لزيارتهم أو لرد زياراتهم، ويتجاذب معهم أطراف الحديث، وما أن يصل إلى دكانه حتى يتحلق حوله مجموعة أخرى تفتح مجال السؤال والجواب.

لقد عاش شيخنا متفرغا للعطاء اللامحدود وبلا أي مقابل سوى مرضاة الله ونبيه - كما كان يقول لكل من يشير إليه أو عليه باتجاه المقابل المادي، يتقدمهم جميعا سمو أمير الكويت حينذاك الشيخ عبدالله السالم الصباح (٢٥ فبراير ١٩٥٠ - نوفمبر - ١٩٦٥) الذي تتلمذ على يديه كما كان والده قبله.

فقد كان الشيخ عبدالله دائم الحضور لمنتداه،

وكم تمنى أن يقلده منصبا رفيعا يليق به، ولكنه كان يرفض إلى أن كان غياب رئيس القضاة حينذاك محمد كامل الشمسي، فأقنعه الشيخ عبدالله السالم بتقلد المنصب بعد أن قبل بشرطه وهو أن يعمل متطوعا ... وهكذا بدأ القضاء به ومعه في الكويت وسار به حتى مرحلة التمييز حيث اعتمد مميزا رسميا للبلاد، وأيضا من دون مرتب ولامزايا أخرى. بل تم تقنين ذلك عام ١٩٦٠ بقانون المرافعات الذي وضع مواده العلامة عبدالرزاق السنهوري باشا حين أصبح العم يوسف بن عيسى قاضيا للتمييز في المسائل المدنية والأحوال الشخصية، وظل كذلك حتى آثر أن يعتزل بعد أن كبرت الأمور وتشابكت مع تطور الكويت المتسارع، وتعقدت القضايا وتشعبت المسائل القضائية، ولكنه بقي في موقعه الجليل المرجع الرسمي وشبه الرسمي للحكم في قضايا الأحوال الشخصية، لكن الطريف في الأمر أن الذي أصدر حكم اعتزاله هو ابنه حسن البالغ من العمر حينذاك ١٥ سنة، والذي ضاق بالمراجعين الذين يترددون على والده طوال ساعات النهار والليل طلبا لفتوى أو مراجعة أحكام، ويشهد الصبي جهد والده المضني من أجل إرضاء الناس، وأبوه يكبر في عينيه كل يوم ويبدو عليه العجز والإرهاق، فأخذ طرثوث(وهو نبات صحراوي له لون قرمزي)، وكتب على باب الديوان عبارة «الشيخ يوسف بن عيسى يعتزل العمل القضائي»، وبلغت به الشجاعة مبلغا جعله يقف عند الباب، ثم يسأل كل طارق إن كان يعرف القراءة! ثم يشير

بإصبعه إلى الإعلان عن الاعتزال وكان ذلك عام ١٩٦٥.

«وحسن هذا - الصبي الشقي - هو المحامي حسن العيسى الكاتب في جريدة القبس».

ولا تنسى الكويت لشيخنا الجليل تنازله عن نصف قيمة أرضه في السالمية والملاصقة لمركز سلطان اليوم، عندما علم بحاجة الحكومة إليها لإقامة مستشفى في وقت ارتفعت فيه دخول أهل البلد ببيعهم أراضيهم للدولة من أجل التنظيم الجديد للبلاد، ولكن الخدمة العامة كان لها في نظره شأن آخر لا تضاهيه المادة.

لعل أروع ما في شخصيته في ظني تلك السباحة الرائعة في بحور الدين والفقه الديني والمذاهب والاجتهادات والتفسير، ثم القدرة على اغتراف ما يناسب زمانه والتبشير به بالتيسير والضياء والأمل، مما جعله متأثرا بكل من تتلمذ على يده، وبكل مذهب قرأ فيه وعنه، وبكل كتاب درسه حتى أنه ساير الفكر الوهابي في محاولته لتنقية الدين الإسلامي من الشوائب التي لحقت به، وكان يرى في تلك الشوائب معالم جاهلية، وتحمس لكل ما يتعلق بالحداثة والتجديد والتيسير، انطلاقا من القول الكريم بأن الحكمة هي ضالة المؤمن، فأينما وجدها فهو أحق بها، عطفا على القاعدة الفقهية بأنه حينما تكون مصلحة البشرية فثم وجه الله، ولم يكن غريبا على من مثله أن يقف موقفا إيجابيا من الديموقراطية مثلا ويرى فيها -بثاقب فكره -أنها الصورة الحديثة للشورى، مما فرض عليه أن يلعب دورا مهما كحلقة

توفيق ما بين رغبة الشباب الوطني في المشاركة السياسية وأجهزة الحكم في البلاد ممثلة في سمو الأمير حينذاك ١٩٢١ و ١٩٣٨.

لقد أعطاه عمق علمه وتفقهه في الدين صلابة القدرة على الوقوف مع الحق وبحياد - عرف عنه - مما يثبت أنه كلما اقترب الفكر الديني منه بالذات، ابتعد عن التكسب المادي وظهر أكثر نقاء وصفاء، وابتعد عن مرضاة هذا وذاك وخلص لمرضاة الله عز وجل، الأمر الذي مارسه العم يوسف، وشهد له بذلك عمله وصحبه والمترددون على ديوانه وكل من عايشه وعاشره. فقد كان يرى أن مرجع التحليل والتحريم هو الله وحده جل وعلا، وكان شيخنا يرفض المغالاة ومنها موقفه الشهير من عدّة الأرملة مثلا، وهي التي كانت تحبس في بيتها شهورا أربعة وعشرة أيام لا ترى النور حتى لو جاعت وجاع صغارها، فسهّل لها الحركة لتجري على مصلحة أبنائها، إن لم يكن لها عائل سوى الزوج الذي افتقدته، وحدد الغرض الأهم من العدة في طهارة الرحم واحترام المتوفى وحصر التحريم في «الطيب والخطيب» أي في التزين والتعطر والزواج.

كان رحمه الله يرحب بالإصلاح في أي مجال، ويتجه بفكره وعينه ولسانه دوما نحو الأفضل، من ذلك تجربته عندما زار البحرين ولفت نظره نظافة شوارعها فكتب عنها مقالا في مجلة الكويت لمؤسسها عبد العزيز الرشيد، وما لبث أن نقل التجربة إلى الكويت بتأسيس بلدية الكويت عام ١٩٣٠.

ما كان يفهم للمسؤولية معنى من دون الحرية، لذا

كـان يرحب بهـا دومـا، ولا يرى في انتظار القـيـادة السياسية إلى حين التأكد من قدرة الشعب على حمل المسؤولية مسوغا أو مبررا معقولا، فالحرية والتحرر إنما هـمـا مـن هبـات الله تعـالى لخلقـه، ولا يـحق ولا يجوز لأي قائد أن يعـرقل مسارها لأن المسؤوليـة تأتي معها وفي بطانتها، وهي تمثل - أي المسؤولية - الوجه الثاني للعملة ذاتها - الحرية - وهـي عملة لا بد لأي شعب من تداولها من دون تشطير.

لذا كان يـرى أن مـشاركة الشـعب في السلطة آمـر حتمي وواجب وطني على الطرفين الحكومة والشعب، ويجب الـعمل بهـمـا في الاتجـاه الـصـحـيح، ولكنه يرفض بصلابة أمرين اثنين:

أولهـمـا: فكرة الانـضـمـام إلى الـعـراق، وتلك كـانت فكرة دخلت إلى بعض من عـوالم التلمـيح والتـصـريح لبعض الشبـاب، ممن كانوا يوصـفـون بالوطنيين تأثرا بثـورة رشـيـد عـالي الكيلاني في الأربـعينيـات، والذي كان يطلق عليه زعيم الأمة العربية.

أما الأمر الثاني: فكان مقته لعملية «سلب السلطة» - كمـا كان يسميهـا، ويقـصـد بذلك الثورات من أجل قلب نظام الحكم، حتى أنه تعرض لهجـمـة شرسـة من مـجلة روز اليـوسف، والكـاتب جـلال كـشك بـالذات عندمـا عبـر عن عدم رضـاه عن أسلوب تحول السلطة إلى جـمـال عـبـدالناصـر. وقـد أصـاب الهـجـوم عـائلة «القناعات» كلها، فذهب الابن عبدالحميد إلى الشيخ شاكيا من ذلك، ومشيرا إلى أن سبب الهجمة إنما هو مواقف أخيه الأصغر (حمد الشيخ يوسف) فـرد عليه العم: إن حمد حـر فيمـا يفكر فيه، ولا أرضى لنفسي

أن أحجر على رأيه، ومن لايرضى بما يقول فليقارعه بالمنطق والحجة لا بالهجوم لأن الهجوم سلاح الضعفاء.

لكن موقفه مني ومن زميلاتي ومن الجنس الأضعف - كما يطلق على النساء في بعض المجتمعات - كان موقف الدعم، والتشجيع والإيمان بأن لا نهضة تتم لمجتمع من دون نسائه. وفي هذا الموضوع كتب مقالات عدة وسلك في نصحه وحكمه مسلك الحق في الإنصاف في مجتمع ترفع العادات والتقاليد فيه الرجل على المرأة، فقط لكونه رجلا، ويتقلص فهمها لمعنى النهضة الاجتماعية والتطور والتقدم والنمو بأنه مجهود يستطيع الرجال - أي الذكور - في أي مجتمع القيام به بمعزل عن النساء.

هذه الوقفة كان لها صدى اجتماعي وثقافي، علمي وعملي أرخها ووثقها شاعر الكويت الكبير صقر الشبيب.

أشار د. أحمد في بحثه إلى مقدمتها قال فيها شاعرنا الكبير

وأعجبني انتصارك للواتي
تكبدن الأذى زمنا طويلا
فواصل - لا عدمناك - انتصارا
لهن من الأذى حتى يزولا
وأعمل من يراعك ما أرانا
محيا الحق وضاحا صقيلا

وعن شكوى النساء من تكبيلهن بالعادات والتقاليد يقول صقر الشبيب موجها كلامه إلى شيخنا

تشكّين الحـــزونة في حـــيـــاة

بهـا العـادات أعـدمت الســهـولا

فـقم في مـــحـــو عـــادات ثقـــال

فـمـثلك من مـحـا العـاد الثـقـيـلا

فـمـا ترجـو سـوى عليـاك غـيـد

تقــاسي في الكويت عنا ويـيـــلا

فــأنت فـتى الكويت اليــوم يا من

أقـــام لأهلـهـــا المجـد الأثـيــلا

ولعله من المؤسف أن لا نملك المقـال أو المقـالات التي كتبـها الشيخ يوسف في تحرير المرأة، ولكن رد الشاعر الكبير عليها يقدم لنا المعاني كلها:

أين حـق النســـاء اليـــوم يـا مـن

أزال بـأمـــســـه عنـا الخـــمـــولا

فـــمـــا إنقـــاذهـن من البـــلايا

إذا مـا قـام مـثلك مـسـتحـيـلا

إذا مـــــا رام مــــثلك أي أمــــر

وثـابـر عـــاد أصــعــبــه ذلولا

فــلا تـســجـن يـراعك واتّـركـــه

بميــدان النصــيـحــة أن يجـولا

وقل واجـــهــــر وصـــرح تلق منـا

ومنـهـن التــجلة والـقـــبـــولا

أنـلـزمــهـن مـــا نـرضــاه قـــســرا

وإن لـم يـرض مـنـهـن المـيــــولا

ونــزعـم أن هــذا الـظـلـم يــأبـى

علـيـنـا الـديـن عـنـه أن نـمـيــلا

أفي الـديـن الـفـــســيح الـرحـب

أن لا نـبـلّ لهـــا بإنـصـــاف غـلـيــلا

ثم يستجد بالله عز وجل وعلا ورسوله (صلى الله عليه وسلم)

فيقول:

أيرضي الله عطف الغيد قهرا

إلى ما لا يردن أم الرسولا؟

اعتزل شيخنا العمل الرسمي عام ١٩٦٥، وتفرغ للوعظ الديني بجناحيه القانوني والاجتماعي، ولتشجيع كل حركة استنارة وتصحيح مسار، فقد بارك إرسالنا - كبنات - إلى الجامعة عام ١٩٥٦ والاغتراب في القاهرة، ولم يكن يعرف ماهية الجامعة التي سوف تستقبلنا. وبعد عودتي من القاهرة بعد إتمام السنة الأولى استدعاني ليعرف عنها المزيد وسألني عنها. وما عرفت من أين أبدأ فهي شيء جديد علي ومغاير لما نعرفه من دور الدروس هنا، ويبدو أنني أفضت في الشرح فقال لي مستعجلا: الزبدة ... هل الكتب أكبر؟ هل تحوي علما أكثر؟ وما إن قلت نعم حتى قال: هي طيبة إذن.

هذا هو الرجل الذي فتحت عيني عليه ممثلا لدور والدي المهاجر إلى الهند، كذلك كان ذاك الشيخ الجليل الذي لا يأخذ راحته الا باللعب مع الأطفال وسماع الأصوات الكويتية القديمة التي كان يطرب لها.

بالدعاء والرحمة أختم حديثي ولكن برواية حادثتين مميزتين::

الأولى:

لقد شهد عام 1957 أول اجراء لإحصاء سكاني للكويت، فما إن مر به المندوب يملأ عنه البيانات حتى

سأله: ما العمل؟ فقال أحد حضور ديوانيته ... تاجر ... فرد شيخنا:لا ... طالب علم.

الثانية:

عندما أراد التخلي عن موقعه كقاض بعد تعقد القضايا بتطور أحوال الكويت والكويتيين، وعلى رغم أنه لا يعد شاعرا إلا أنه كان يقرض الشعر ويحفظه لغيره ويقوله. ولعل أجمل ما كتب في نظري هذان البيتان عندما استاء من التجاوزات وعدم الالتزام:

مـــررت على «العــــدالة» وهي تبكي
فــقلت عــلام تنتــحب الفــتـــاة؟
فـــقـــالت كـــيف لا أبكي وأهلي
جـــمـــيـــعـــا دون خلق الله مــاتوا؟!

مختارات من مراسلاته

١ - ثلاثة نماذج من ردود المرحوم صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح أمير دولة الكويت (من 1950 إلى 1965) على رسائل الشيخ يوسف.

صاحب الفضيلة الاخ الشيخ يوسف بن عيسى حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

وبعد أخذنا بيد الشكر كتابكم المتضمن الابيات الرقيقة بمناسبة الذكرى الاولى لعيد الكويت الوطني . واننا اذ نقدر لفضيلتكم ما احتوته من المعاني الطيبة ليسرنا بهذه المناسبة السارة ان نبعث اليكم بالابيات الاتية ردا عليها :

لك الشكر يا رمز الوفاء على المدى
ويا طوده العالي على المتسلق
لقد ملأ الاخلاص نفسا ابية
بجنبيك لم تعرف سبيل التملق
وكنت ابا عيسى الى الخير هاديا
تذود عن الاخلاق في كل مرفق
فلا زلت مختالا بأكمل صحة
تحلق في جو الهناء وترتقي

مع أطيب تحياتنا واجمل تمنياتنا . [توقيع]

٢٠ محرم ١٣٨٢
٢٣ جون ١٩٦٢

فضيلة الاخ العزيز الشيخ يوسف بن عيسى سلمه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

لقد تلقينا بمزيد الشكر والتقدير رسالتكم الكريمة المؤرخة ٧ جماد ثاني ١٣٨٤ ومعها ثلاث نسخ من مؤلفكم القيم " الملتقطات " راجين المولى ان يقدركم دوما على اتحاف المكتبة العربية بالمزيد من نتاجكم الفكرى المفيد .

ننتهز هذه الفرصة لنبعث لفضيلة الاخ باطيب تمنيات الصحة والسعادة والبارى يحفظكم .

٨ جماد ثاني ١٣٨٤ هـ
١٤ اكتوبر ١٩٦٤ م

فضيلة الاخ العزيز الشيخ يوسف بن عيسى حفظه الله

بعد السلام والتحية ،

اخذنا بمزيد التقدير كتابكم الكريم المؤرخ ١ رمضان ١٣٨٤ وشكرنا لكم ما ضمنتموه من كريم المشاعر وقد حمدنا الله ان تقاربت وجهات النظر وحلت المسئلة ، سائلين المولى ان يوفق الجميع لما فيه الخير والصلاح .

كما اننا نقدر الاسباب التي دعتكم للاعتذار عن قبول عضوية رابطة العالم الاسلامي ، راجين المولى ان يمتعكم بالصحة والعافية وان يحفظكم ويرعاكم .

٢ رمضان ١٣٨٤ هـ
٤ يناير ١٩٦٥ م

2 - رسالة طلب فتوى والرد عليها صادرة من الجامع الأزهر الشريف في مصر.

الجامع الأزهر

لجنة الفتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال - من الشيخ يوسف بن عيسى القناعي

ماذا يقال في رجل كتب في وصيته ان بيته وقف على زوجته ومن بعدها على بناتها . ومات من البنات اثنان والزوجة على قيد الحياة - ثم ماتت الزوجة وتركت بنتا واحدة ليس لها نسل - وقد سكن البيت منذ وفاة الموصي سنة ١٢٨٠ هجرية ولده، ثم من بعده اولاده الى حال التاريخ - واليوم يدعي احد ورثة البنتين المتوفاة قبل والدتها بميراث من هذا البيت - والحال ان هذا الوقف كان على معينين ثم انقطع بموت البنت التي ليس لها نسل ولا وارث لها سوى اولاد اخيها الذين يسكنون البيت وهم اولاد اخ شقيق والبنت التي انقطع بموتها الوقف ماتت منذ ٥٩ سنة - فهل للمدعي حق ارث بعد مضي هذه المدة الطويلة وهو على قيد الحياة ولم يطالب بشيء الا في هذه السنة .

الجواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين اما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وتفيد ان الظاهر من السؤال ان الوقف كان على الزوجة ثم من بعدها على بناتها فقط فطبقا لمذهب الحنفية يكون هذا الوقف على معينين فاذا كان صحيحا شرعا ولم ينص الواقف على الموقوف عليه بعد البنات ولا على حكم من مات قبل الاستحقاق كان الوقف بذلك منقطعا يصرف الى الفقراء فلا يكون لأولاد البنتين اللتين توفيتا قبل امهما استحقاق في هذا الوقف بهذه الصفة ولا ارث في اعيانه .

وبهذا علم الجواب عن السؤال والله اعلم .

رئيس لجنة الفتوى

سجلت تحت رقم ... بتاريخ

٣ - رسالة تجارية بخط يده تتحدث عن نوع من الرز يمكن أن يرسل من كلكته عن طريق كراتشي إلي الكويت، يسلم للحكومة فتعرضه على التجار بالمزايدة.

٦٢+٦٤

YOUSOOF BIN ESSA
KOWEIT.
Telegraphic Address:—
Youso[illegible]essa.

يوسف بن عيسى
كويت
تلغرافيا يوسف عيسى

بسم الله من الكويت ٢١ رجب سنه ١٣٢٨

حضرة [illegible] الحاج المحترم بعد السلام عليكم انه لابد بلغكم
لولدكم [illegible] تلغرافات [illegible] وانه يحصل [illegible] للخيل عيش
من كلكته من طريق كراچي [illegible] في كلكته [illegible] والخيل بدون باس وانما يسلم
للحكومه [illegible] والحكومة تبيعه بالمزايده فمن الممكن [illegible]
من [illegible] ٨ [illegible] بعد [illegible] من التجار [illegible] عيش كلكته [illegible]
[illegible] التي عند الاخ [illegible] عشرين [illegible]
[illegible] الفرصه [illegible] والسلام
عليكم وعلى الاولاد والسلام

يوسف
بن عيسى

4 - رد الشيخ يوسف على أمين عام رابطة العالم الإسلامي شاكرا له ترشيحه لعضوية المجلس التأسيسي معتذرا عن عدم القبول لأسباب صحية.

٨

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الامين العام لرابطة العالم الاسلامي الموقر

بعد التحية والاحترام ؛

تسلمت خطابكم الكريم رقم ١٠١ تاريخ ١/ ٨/ ١٤٠٢ الموافق ٨/١٢/ ١٤ وسرني فيه قرار أصحاب الفضيلة أعضاء المجلس التأسيسي بقبولي عضوا في المجلس .

واني اذ أشكر أعضاء المجلس على هذه الثقة ؛ أود الافادة بأنني قد بلغت الثامنة والثمانين من العمر وانني تقريبا مقعد لا أملك القدرة على الانتقال او السفر أو حتى مجرد السير البسيط , فضلا عن ضعف نظري , الامر الذي لن يمكنني من مزاولة أي نشاط تفرضه علي مسؤوليات العضوية . لذلك أرجو تفضلكم بابلاغ اعتذاري لاصحاب الفضيلة أعضاء المجلس عن عدم استطاعتي تولي مسؤوليات العضوية ؛ مؤكدا شكري العميق لهم على ثقتهم الطيبة بي . واني انتهز هذه المناسبة لأرجو الله أن يحقق لرابطتكم كل تقدم وازدهار وأن يوفقها في خدمة الأغراض النبيلة التي من أجلها تأسست هذه الرابطة .

هذا واقبلوا تحياتي وتمنياتي .

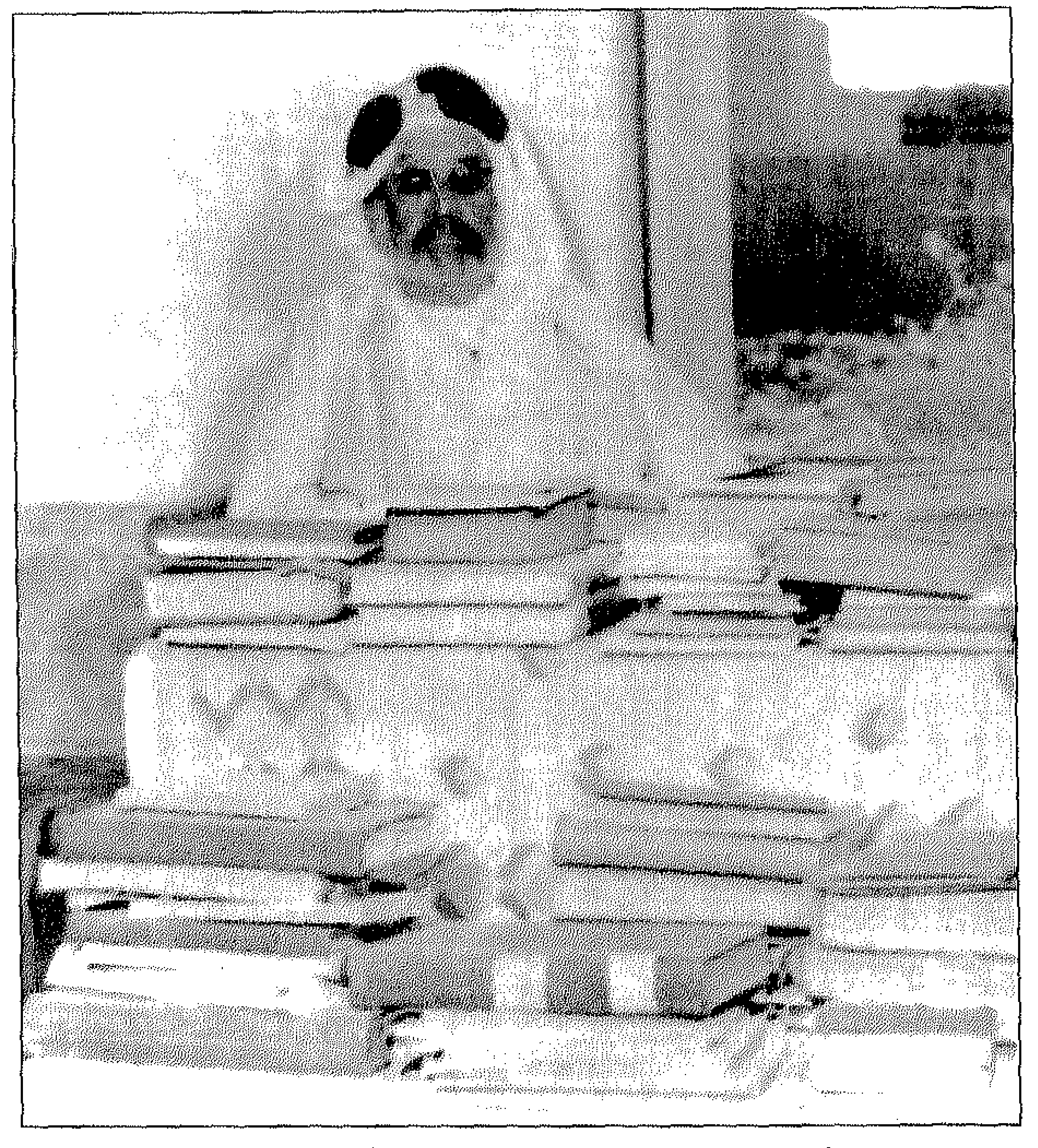
المخلص

يوسف بن عيسى القناعي

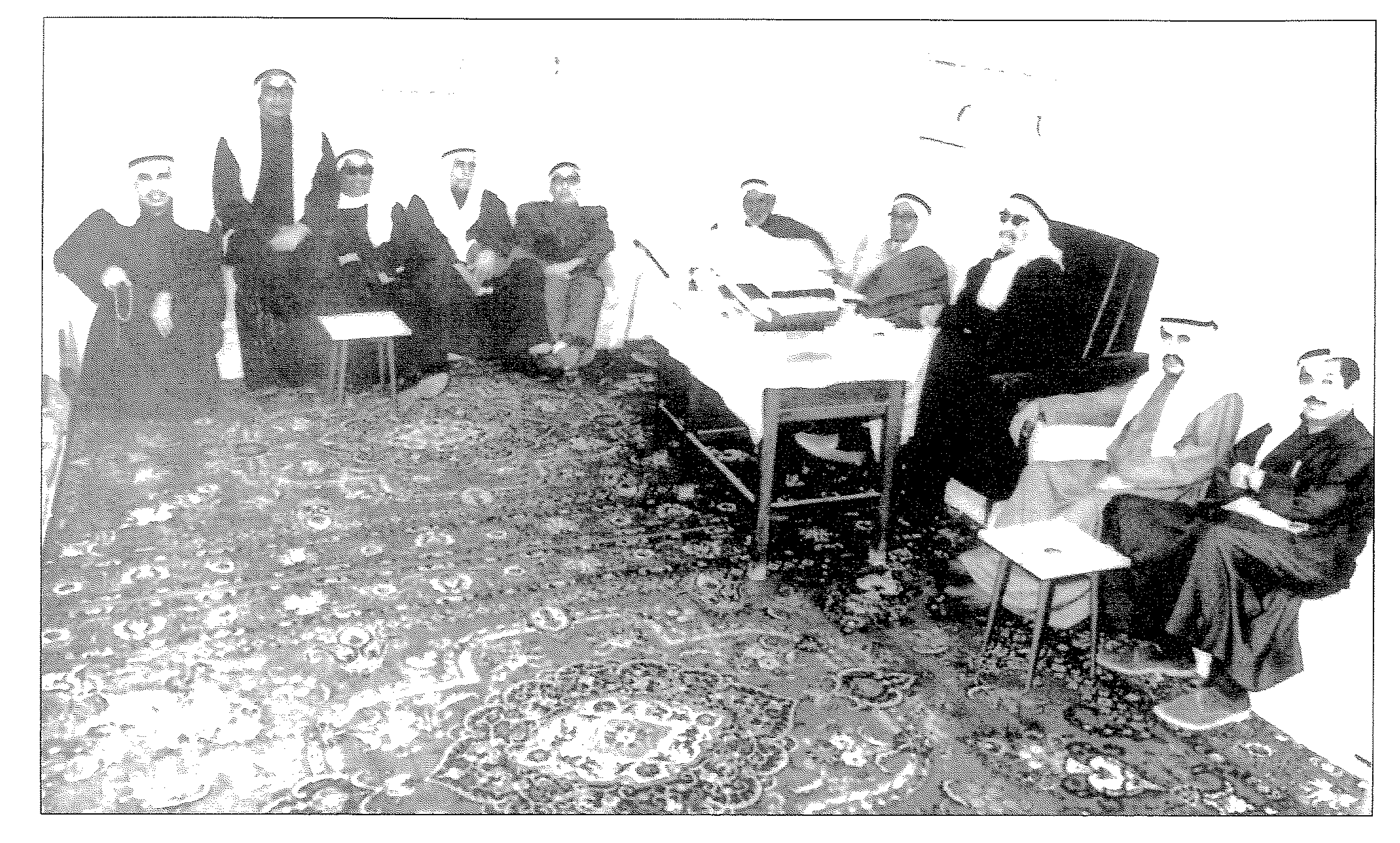
كويت في ــــــــــــــ



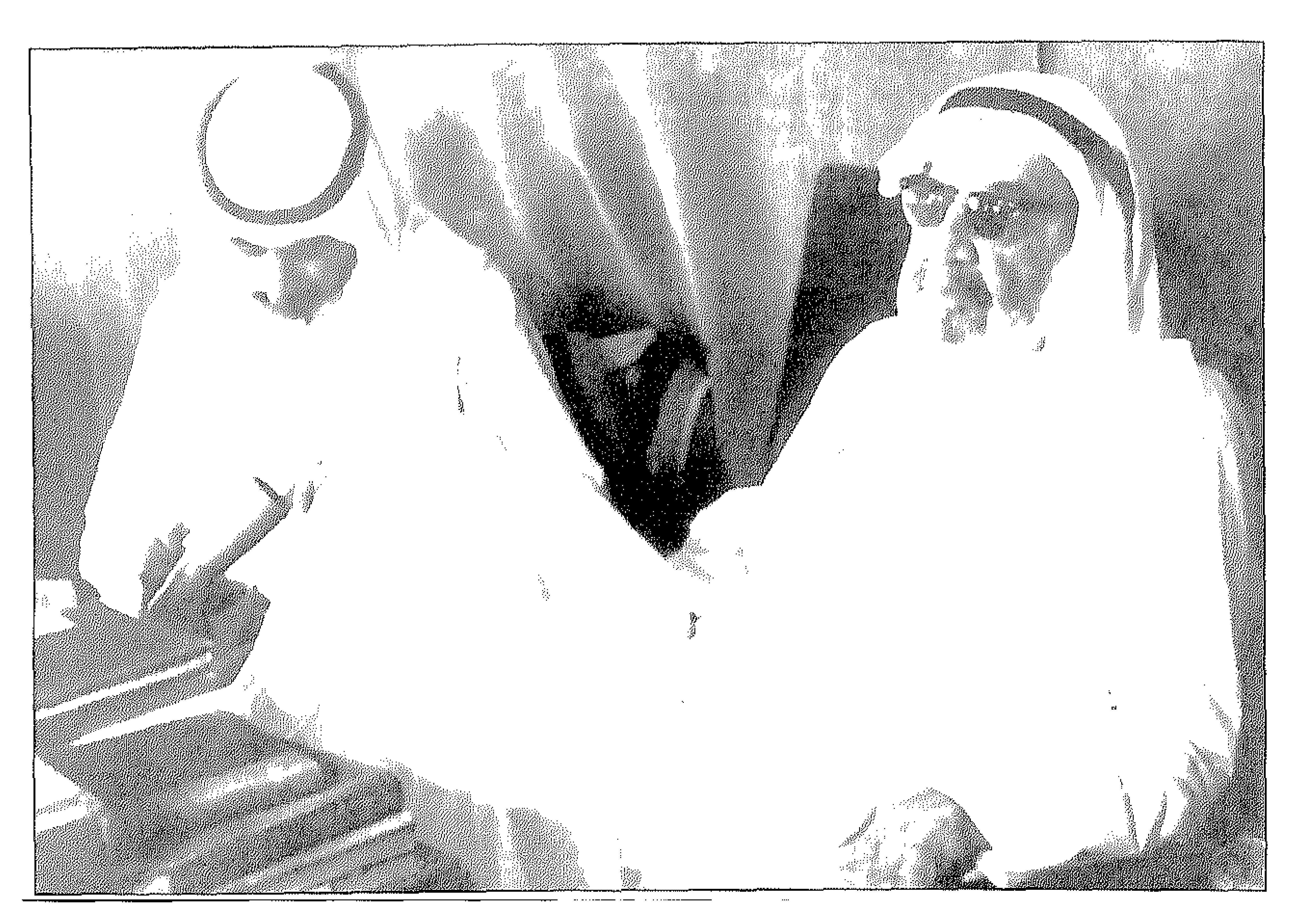
الشيخ يوسف في وداع فريق التعليم للمدرسة العربية في بومبي



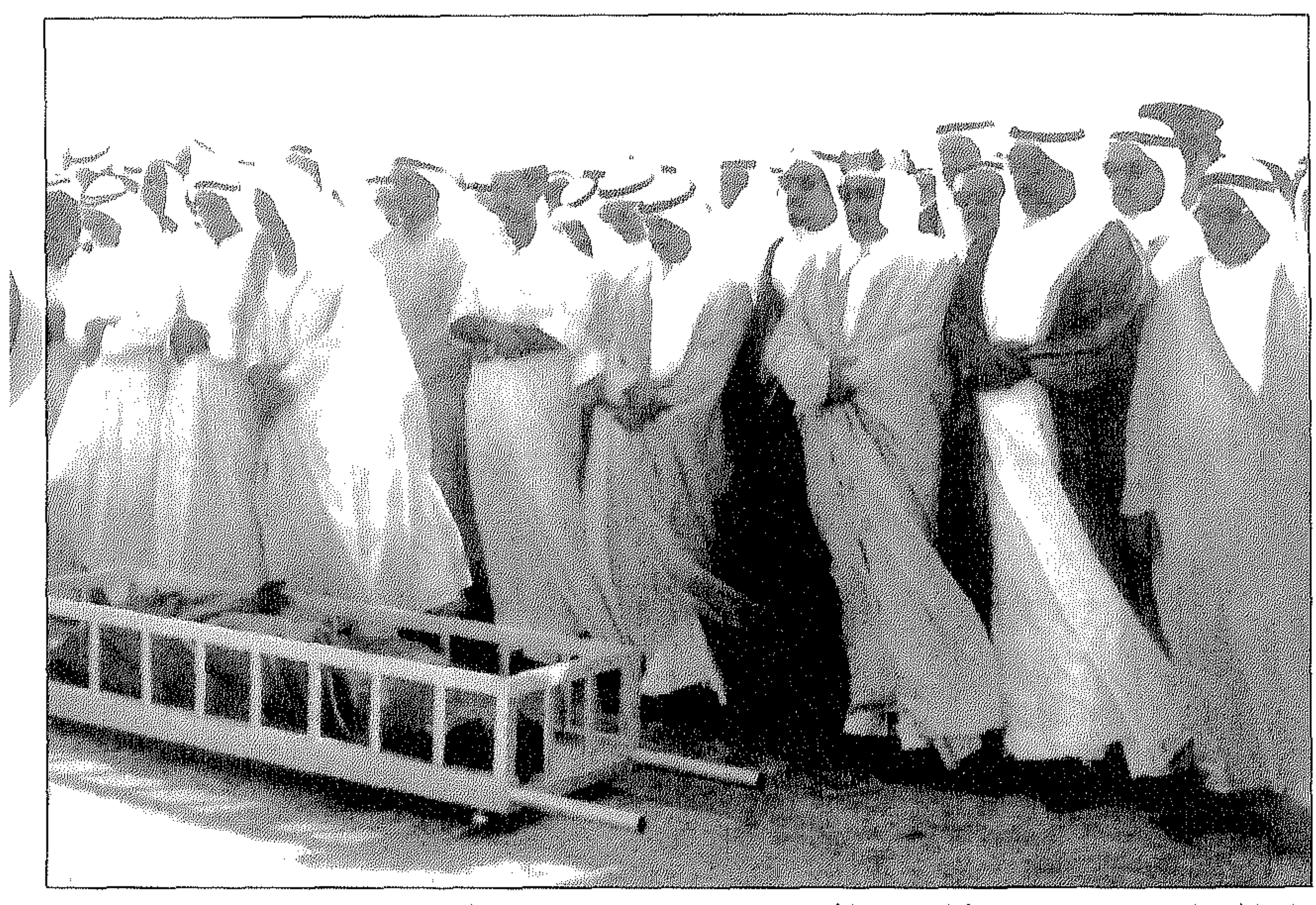
الشيخ يوسف بن عيسى على مكتبه في ديوانه



ديوان الشيخ يوسف بن عيسى في منطقة السالمية الذي اطلق عليه لوذان



آخر مقابلة تلفزيونية للشيخ يوسف بن عيسى سجلها له
المؤرخ سيف مرزوق الشملان.



الصلاة على جتمان الفقيد (المرحوم الشيخ يوسف بن عيسى) ويبدو في الصورة صاحب السمو الشيخ جابر
الاحمد والشيخ سعد العبدالله، الشيخ عبدالله الجابر، الشيخ سالم العلي والسيد عبدالعزيز الصقر.

المحتويـــات

الصفحة

ردمك ٩ ـ ٠٩٢ ـ ٠ ـ ٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 092 - 9

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت